سلسلة حسن الظن بالله عز وجل

المجلد الثاني

أنا عند ظن عبدي بي

فقه حسن الظن بالله

مدارج القلوب

إهداء

إلى من يدعو ويرجو، ويبحث عن معنى يثبت معه إذا طال الانتظار. نسأل الله أن يرزقنا صدق الرجاء وحسن العمل، وأن ينفع بهذه الكلمات من قرأها.

ولا تنسنا ووالدينا ومن أعان على هذا العمل من دعوة بخير.

تأليف وتوزيع مدارج

الإصدار ٠٫٢٤

الفهرس

مقدمة	٥
الفصل الأول: ماذا تظن بربك	٦
الفصل الثاني: الرجاء الذي يصحبه العمل	١٢
الفصل الثالث: الدعاء حين يطول الانتظار	١٨
الفصل الرابع: الاستخارة حين تريد ولا تعلم	٢٣
الفصل الخامس: توكل لا يلغي المشورة	٣٠
الفصل السادس: الرجاء والخوف في قلب واحد	٣٥
الفصل السابع: الرجاء والاغترار: ماذا يفعل الأمل في عملك؟	٤٠
الفصل الثامن: حين لا يبقى قلبك على حال واحدة	٤٥
الفصل التاسع: قلبك وعملك: ما الذي ترجوه من فعل الخير؟	٥٠
الفصل العاشر: الصدق حين يصبح الاعتراف مكلفًا	٥٥
الفصل الحادي عشر: عمل لا يراه أحد ثم تحتاج إليه	٧٠
الفصل الثاني عشر: اليقين بالخبر وتقلب الشعور	٧٩
الفصل الثالث عشر: لا تجعل الطاعة شرطًا تمليه على العطاء	٨٤

الفصل الرابع عشر: من معرفة الحكم إلى أمانة الاختيار ٨٩

الفصل الخامس عشر: بعد الخطأ كيف تتعلم دون أن تعترض ٩٤

الفصل السادس عشر: رجاء يحفظ حقوق من معك ٩٩

الفصل السابع عشر: لا تجعل الناس ميزان قبولك ١٠٤

الفصل الثامن عشر: أسئلة تعترض طريق الرجاء ١٠٩

الفصل التاسع عشر: الأسباب التي تبذلها والقلب الذي يعتمد على الله ١١٧

الفصل العشرون: الرجاء في طريق التعلم والنصح ١٢٤

الفصل الحادي والعشرون: حين يثبت الوعد ويتغير ما توقعت من الطريق ١٣٠

الفصل الثاني والعشرون: عبادة تبقى معها الحقوق محفوظة ١٤٧

الفصل الثالث والعشرون: بعد تمام العمل كيف ترجو قبوله ١٥٦

الفصل الرابع والعشرون: كيف تقرأ خبرًا عن الفرج ١٦٣

الفصل الخامس والعشرون: قراءة تطبيقية لقرار يصحبه الرجاء ١٧٠

خاتمة: رجاء تعرف ما يستند إليه ١٧٩

المصادر والمراجع ١٨٠

مقدمة

نحتاج إلى حسن الظن بالله حين نبدأ أمرًا نرجوه، ونحتاج إليه حين تأتي النتيجة على غير ما أردنا. وقد يكون الامتحان الأصعب بين البداية والنهاية، حين نعمل ولا نرى بعدُ ما ننتظر، وندعو ثم نعود إلى يومنا بأسئلتنا نفسها. في هذه المسافة تتضح حقيقة ما نعتمد عليه: أهو خبر الله عن نفسه، أم الصورة التي رسمناها لما يجب أن يحدث؟

حسن الظن بالله عبادة تتصل بمعرفته وتصديق وعده ورجاء فضله. وهو يصحب العمل والاستعانة والدعاء والتوبة. لا يجعل العبد عالمًا بالغيب، ولا يعفيه من السؤال عما يجوز له وما لا يجوز. وقد يشعر المؤمن بالخوف أو الحزن مع بقاء رجائه بالله؛ فليس المقصود أن ينجح في صناعة شعور واحد لا يتغير.

يمكن أن تقول: أرجو أن ييسر الله هذا الأمر، ثم تستشير وتراجع قرارك. ويمكن أن تقول: أرجو مغفرته، ثم تبادر بإصلاح خطئك. ويمكن أن تسأله كشف الضر، ثم تصبر حين لا تملك رفعه. هكذا يجتمع صدق الرجاء مع العمل الذي يرضي الله.

الفصل الأول

ماذا تظن بربك

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».[١]

يأتي حسن الظن في هذا الحديث مع الذكر والتقرب. ويخبر الله عن معيته لعبده إذا ذكره، وعن فضله في مقابلة تقربه. فالمعنى الذي يستند إليه رجاؤك ليس أنك تستطيع أن تختار مصيرك بمجرد قوة التخيل، بل أنك تتوجه إلى رب عرّفك بفضله، فتذكره وتتقرب إليه، وتثق بوعده على الوجه الذي أخبر به.[٢]

---

١ البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، حديث ٧٤٠٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ تثبت الصفات الواردة على الوجه اللائق بالله من غير تكييف أو تمثيل؛ لا يستخرج من الحديث ضمان كل متخيّل دنيوي.

حين تستغفر، ترجو مغفرة من دعاك إلى التوبة. وحين تعمل صالحًا، ترجو القبول ممن لا يضيع العمل الصالح، مع اعترافك بتقصيرك وحاجتك إلى رحمته. وحين تدعو، ترجو الإجابة ممن أمرك بالدعاء. لكل رجاء مستنده، ولكل عبادة ما تصح به؛ فلا يُنتزع صدر الحديث ليجعل كل تصور محبوب وعدًا واجب الوقوع.

المعية والتقرب كما جاء بهما الخبر

نؤمن بما أخبر الله به عن نفسه على الوجه اللائق به، من غير تشبيه بخلقه ولا تحويل للنص إلى خيال عن كيفية صفاته. والمقصود من هذه المعرفة أن يصدق إقبالك عليه؛ فلا يصبح السؤال عن الكيفية المجهولة شاغلًا عن الذكر والعمل اللذين دل عليهما الحديث.

قد تبدأ بعمل يسير تعرف مشروعيته، ثم ترى نفسك محتاجًا إلى أن تثبت عليه. لا تحتقر البداية لأنك لا تشعر بكمال الحال. تقرب إلى الله بما شرع، واسأله أن يصلح قلبك، وانتفع بخبر فضله. العبد لا يصنع لنفسه منزلة يتعالى بها، وإنما يرجو أن يوفقه الله إلى ما يحبه ويقبله منه.

ومن الخطأ أن يتحول حسن الظن إلى ضغط على النفس: إن لم أستطع أن أتخيل النجاح بقوة فسأمنعه من الوقوع. ليس هذا معنى الحديث، ولا يجعل الخاطر العابر خالقًا للنتائج. علاقتك بالله لا تقوم على مراقبة كل صورة تمر بذهنك خشية أن تتحول إلى قدر؛ تقوم على الإيمان والعمل والدعاء والرجوع إليه فيما يعرض لك.

سؤال يكشف موضع الخلط

إذا قلت: أنا أحسن الظن بالله، فاسأل نفسك عمّا تعنيه. أتعني أنك ترجوه وتصدق خبره وتستعين به؟ أم أنك تعني الجزم بأن الأمر الذي اخترته سيقع حتمًا؟ قد تتشابه العبارتان في اللسان، ثم تختلفان حين تأتي النتيجة.

الأول يبقى له من المعرفة ما يسنده، ولو أحزنه ما حدث؛ يعرف أنه لم يُخبر بنتيجة خاصة، فيعود إلى العمل والدعاء. والثاني قد يشعر أن وعدًا قد نُقض، مع أن الوعد إنما صنعه لنفسه. ولهذا يستحق تصحيح المعنى عناية تسبق انتظار الفرج؛ فهو يحمي القلب من خصومة تنشأ مع توقع لم يصدر عن الله.

خبر الله هو أصل الرجاء

حين يريد الإنسان أن يفهم حسن الظن بالله، يبدأ مما أخبر الله به عن نفسه، لا مما يتمنى أن تكون عليه علاقته بالحياة. يعرف رحمته ومغفرته وعلمه وعدله، ويتعلم الأمر والنهي والوعد والوعيد، ثم يستقبل حاجاته في ضوء هذه المعرفة. لذلك كان المجلد الأول تأسيسًا لهذا المجلد؛ ففقه العبادة يحتاج إلى معرفة المعبود كما عرّف نفسه، ولا يبنى على صورة اخترعتها التجربة أو صنعتها عبارة شائعة.

قد يعتاد المرء أن يعامل الناس بحسب خبرته بمن حوله، فإذا تعرض لخذلان صار يتوقعه من الجميع. لا تنقل هذا القياس إلى ربك. الخلق يجهلون ويعجزون ويظلمون، والله منزه عن نقصهم. وفي الجهة الأخرى لا تجعل أكثر من أحبك من البشر حدًا تقيس به رحمته؛ ما عند الخلق من رحمة فضل منه، وليس مقياسًا يحيط بصفته. اقرأ ما ثبت، وأمسك عما لا تعلم كيفيته، ودع المعرفة تصلح توقعك من ربك.

وقد يكون السؤال الذي يلزمك ليس هل أنا متفائل، بل ما الخبر الذي أستند إليه؟ التفاؤل بحصول أمر دنيوي قد يبنى على أسباب ظاهرة وقد يخطئ، أما تصديق أن الله لا يظلم وأنه يقبل التوبة الصادقة فمستنده الوحي. إذا ميزت المستند

لم تهتز الأصول مع كل تقدير دنيوي خالف ما توقعته. تقول أخطأت في توقعي، ولا تقول إن وعد الله أخلف، لأنك لم تتلق منه ذلك التوقيت أو التفصيل.

الذكر الذي يتصل باليوم

في الحديث ذكر وتقرب، فلا تجعل فهمه مقصورًا على ساعات الطلب الشديد. لك مع الله حياة من فرائض وذكر ودعاء وعمل صالح، يرافقها الرجاء حين تسأل وحين تشكر. وقد يكون من أصدق التقرب أداء أمانة لا يصفق لها أحد، أو تعلم حكم يصح به عملك، أو إصلاح ما تعلم من قصدك. لا تبحث دائمًا عن صورة عاطفية كبيرة حتى تبدأ.

والذكر المشروع يتعلم من مصادره؛ لا يخترع الإنسان عددًا وفضلًا ثم ينسبهما إلى السنة لأنه وجد أثرًا طيبًا في نفسه. قد ينظم لنفسه وقتًا لعمل مباح أو لمراجعة علم، لكن التنظيم الشخصي لا يصير عبادة مستقلة بترتيبه. والمهم أن يحفظ الفارق بين ما ثبت شرعًا وما اختاره وسيلة، حتى يستطيع تعديل الوسيلة دون أن يشعر أنه نقض عهدًا تعبديًا لم يلزمه أصلًا.

من ثمرات هذا الفهم أن تكون عودتك إلى الله ممكنة في يوم عادي. لا تحتاج إلى مصيبة جديدة تستخرج بها الدعاء، ولا إلى فرج جديد تتذكر به الشكر. تسأله الهداية في عملك الذي تعرفه، وتحمده على نعمة تعلمها، وتستغفر من تقصير تبين لك. هذه الصلة هي التي تحمل رجاءك حين يأتي ما لم تكن مستعدًا له.

الفصل الثاني

الرجاء الذي يصحبه العمل

قد يطول حديث الإنسان عن الشيء الذي يرجوه، ولا يقترب من أسبابه. يريد توبة ولا يترك طريق الذنب، ويريد إصلاحًا ولا يؤدي الحق الذي يقدر عليه، ويريد علمًا ولا يفرغ وقتًا للتعلم. ليس الخلل في أن عنده أملًا، بل في أنه جعل الأمل قائمًا مقام الاستجابة.

والعمل نفسه قد يحتاج إلى تصحيح. ليس كل نشاط نفعًا، ولا كل ما يستغرق وقتك يقربك إلى ما ينبغي. قد يجتهد المرء فيما يحسن صورته عند الناس، ويترك واجبًا لا يراه أحد. لذلك لا يكفي أن تسأل: هل بذلت كثيرًا؟ اسأل أيضًا: هل بذلت فيما يرضي الله، وهل حفظت الحقوق التي تلزمني؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٣]

جمع الحديث الحرص على النافع بالاستعانة بالله، ثم أرشد إلى الأدب مع ما يقع. وهذا جمع تحتاج إليه قبل العمل وأثناءه وبعده. لا تعتمد على قوتك وحدها، ولا تجعل الاستعانة كلمة تصرفك عن السعي. وعند فوات المراد، لا تنشغل باعتراض لا يغير الماضي؛ ارجع إلى ما يمكنك إصلاحه الآن.[٤]

القوة ليست احتقار الضعيف

نص الحديث على أن في كلٍّ خيرًا. والمراد بالقوة هنا ما يكون به المؤمن أشد عزيمة على طاعة الله وما ينفعه في أمر دينه؛ فلا يصح أن نجعله مقياسًا لتفضيل الأجسام أو الأموال وحدها. وقد يكون الإنسان محدود الحركة، ثم يكون صاحب عزيمة وصدق وعمل يطيقه، ويحتاج الصحيح إلى تعلم الصبر منه.

---

٣ مسلم، الصحيح، كتاب القدر، حديث ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، شرح حديث ٢٦٦٤.

وحين تسمع الأمر بترك العجز، فاحذر أن تستعمله سوطًا على من يعجز حقيقة. القدرة تختلف، والأسباب المتاحة تختلف، وما يقدر عليه شخص قد لا يقدر عليه آخر. انظر في استطاعتك الواقعية، واطلب العون الذي تحتاجه، وأدِّ ما تستطيع. التقصير الذي يمكن تداركه يعالج، والعجز الحقيقي لا يتحول إلى ذنب لمجرد أن الآخرين لا يرونه.

خطوة محددة أصدق من وعد واسع

قد يكون رجاؤك صادقًا، لكن عملك غامضًا. تقول: سأصلح حياتي، ولا تعرف أول ما يلزمك. قرّب الأمر إلى فعل واضح: تعلّم حكم المسألة التي تتكرر عليك، أو أدِّ حقًّا معلومًا، أو اتصل بمن يحتاج إصلاح الأمر معه إذا كان الاتصال مناسبًا وآمنًا. لا تتكلف إصلاح كل شيء في يوم واحد، ولا تؤجل الممكن انتظارًا لقدرة كاملة.

وحين تنجز، فلا تجعل عملك حجة تستكثر بها على الله ما تطلب. لقد احتجت إلى توفيقه لتبدأ، وتحتاج إلى فضله في القبول والثبات. العمل سبب مأمور به، والافتقار إلى الله يصحبه؛ وكلما فهمت ذلك سلم رجاؤك من الكسل ومن الإعجاب معًا.

أن تختار النافع من الممكن

ليس كل ما تستطيع فعله هو الأولى بوقتك. قد تكون قادرًا على أعمال كثيرة، ويشغلك المستحب الظاهر عن حق واجب لا يراه الناس. لذلك يبدأ الحرص على النافع بمعرفة ما يلزمك الآن: عبادة تعلم حكمها، أو نفقة واجبة، أو أمانة عمل، أو تعلم لا يصح تصرفك بدونه. ثم تتسع بعد ذلك لأبواب الخير بحسب القدرة والحقوق. لا يكون ترتيب الأولويات دائمًا مثيرًا، لكنه يجعل العمل أقرب إلى الصواب.

وإذا اختلف عليك وجه النفع، فاجمع ما تحتاج إلى معرفته واستشر من يحسن تقديره. قد يحتاج الطالب إلى إتمام أصل قبل الانتقال إلى مادة يحبها، ويحتاج الموظف إلى إتقان مهمة مملة قبل مشروع يلفت الأنظار، ويحتاج صاحب البيت إلى إصلاح شأن داخلي قبل خدمة يستطيع غيره القيام بها. هذه أمثلة للتأمل وليست أحكامًا على وقائع لم تعرف تفاصيلها. المقصود أن تقيس النفع بوظيفته وحقه، لا بمقدار ما يثير حماستك وحده.

الاستعانة قبل ظهور النتيجة

قد لا يتذكر المرء الدعاء إلا حين تنقطع حيلته، كأنه كان مستغنيًا ما دامت الأسباب متاحة. والاستعانة في الحديث مصاحبة للحرص من البداية. تعلم أن تسأل الله وأنت قادر على العمل، وأن تعتمد عليه حين تملك الوسيلة كما تعتمد عليه حين تضعف. ليس المال والعلم والخبرة خارج ملكه حتى تطمئن إليها استقلالًا، وليست حاجتك إليه عيبًا تخفيه حتى تفشل.

ومن الاستعانة أن تعترف بنقص مهارة فتتعلمها، وأن تطلب عونًا مشروعًا ممن يقدر عليه. لا يناقض ذلك سؤالك الله؛ فهو الذي خلق الأسباب وأمرك بالسعي. لكن لا تجعل المعين البشري ضمانًا مطلقًا، ولا تضغط عليه بما لا يطيق. تفهم حدود ما يستطيع، وتحفظ له حق الاعتذار، وتبحث عن بديل إن لم يتيسر ما طلبت.

مقدار العمل الذي تستطيع حفظه

قد تكون البداية النافعة محدودة جدًا في نظر من يراك. تعلم مسألة، أو إنجاز جزء من مهمة، أو ترتيب موعد لحق مؤجل. لا تصغرها لأنها لا تغير كل شيء، ولا تضخمها فتعد بها ما لا

تحقق. عين ما أنجزته فعلًا، وما بقي، وما يحتاج إلى سؤال. هذا الصدق في وصف العمل يحميك من توهم النجاح ومن احتقار الجهد معًا.

وإذا ظهر أنك لا تستطيع خطة وضعتها، فابحث عن السبب قبل أن تطلق حكمًا على نفسك. هل كانت الموارد ناقصة، أم كان الوقت غير مناسب، أم قدمت أمرًا أقل أولوية، أم احتجت إلى مهارة؟ لكل جواب أثر مختلف. تعديل الوسيلة بعد العلم بنقصها ليس خيانة للعزم؛ قد يكون عين الحرص الذي أمرت به. ويبقى الرجاء معينًا على بدء صحيح جديد، لا ذريعة إلى إنكار ما تعلمته من المحاولة الأولى.

الفصل الثالث

الدعاء حين يطول الانتظار

قد يكون أول الدعاء أسهل من الاستمرار عليه. في البداية تكون الرغبة جديدة، ويكون الأمل قريبًا من الصورة التي رسمتها. ثم تمر الأيام، وتبقى الحاجة، ويقع في القلب تعب لا يراه من يسمع دعاءك. وربما صارت عبارة: لم يحدث شيء، تختصر عندك صلتك كلها بالله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».[٥]

بيّن الحديث صورة الاستعجال الذي ينتهي بصاحبه إلى ترك الدعاء؛ يدعو ثم يستحسر وينقطع. ولم يجعل مجرد محبة الفرج القريب أمرًا مذمومًا، ولا طلبَ كشف الألم دليلًا على

---

٥ مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، حديث ٢٧٣٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

اعتراض. إنما تحتاج أن تحفظ باب سؤالك لله من أن تغلقه لأنك لم تر بعدُ ما تريد.[٦]

السؤال المشروع

ليس كل مطلوب يصح أن نسأل الله تحقيقه. نهى الحديث عن الدعاء بإثم أو قطيعة رحم. وقد تخفي الرغبة الشديدة عن صاحبها جانبًا من المسألة؛ فيطلب انتصارًا لنفسه يتضمن ظلمًا، أو يتمنى لنفسه مالًا من طريق محرم. يتعلم المؤمن ما يصلح دعاءه كما يتعلم ما يصلح عمله، ولا يحتج بحرارة رغبته على جواز ما يرغب فيه.

وإذا عرض لك شك حقيقي في حكم طلبك، فاسأل من يعلم. لا تفتش في كل لفظ تفتيشًا لا ينتهي، ولا تجعل الدعاء معلقًا حتى تبلغ عبارة تتوهم أنها خالية من كل احتمال. سل الله الخير بكلام واضح، وتعلم الأدعية المأثورة، وصحح ما ظهر لك من خطأ بلا تكلف.

---

٦ مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، حديث ٢٧٣٥؛ النهي عن الاستعجال الذي يفضي إلى ترك الدعاء.

بين المحاسبة واتهام المبتلى

من النافع أن يراجع الإنسان عمله وكسبه وما يعرفه من تقصير، لكن لا نملك أن نحكم على داعٍ بعينه بأن دعاءه تأخر بسبب ذنب نتصوره فيه. وجود موانع في النصوص لا يجعلنا عالمين بأنها تحققت في هذا الشخص أو في تلك الواقعة. المحاسبة الصادقة تبحث فيما تعلمه لتصلحه، أما اتهام الغيب فيزيد الألم ولا يبني علمًا.

وأعن المنتظر بما تستطيع من استماع أو عمل يخفف عبئه، وذكّره بربه بكلام صحيح يناسب حاله. لا تجعل الحديث امتحانًا لصدق دعائه، ولا تعده بموعد أو مآل لا تعلمه.

لا تجعل الانتظار حياتك كلها

تستحوذ الحاجة أحيانًا على النظر حتى يبدو كل يوم صفحة بيضاء لمجرد أن الجواب المنتظر لم يصل. وقد تكون في اليوم حقوق أديت ونعم انتفعت بها وخطوات نافعة بذلتها، لكنك لا تراها لأن علامة واحدة صارت ميزان كل شيء. لا يطالبك هذا البيان بأن تقل حاجتك أو أن تنسى ما تدعو به؛ يذكرك بأن الله جعل لك في يومك أبوابًا أخرى لا يلزم تعطيلها.

من ينتظر عملًا يمكنه، بحسب قدرته، أن يتعلم أو يؤدي حقًا أو يوسع بحثه. ومن ينتظر إصلاح علاقة يمكنه أن يحفظ لسانه ويصلح ما عليه دون ملاحقة مستمرة للطرف الآخر. ومن ينتظر خبرًا عن علاج يرجع إلى المختصين فيما يحتاجه، ويستعين بمن يساعده على مسؤولياته. هذه أعمال واقعية لا تفسر الغيب ولا تضمن النتيجة، لكنها تحفظ للوقت الحاضر حقه.

الإلحاح الذي لا يعتدي

تكرار الدعاء المشروع باب خير، ولا يحتاج الداعي إلى تبديل الألفاظ كل مرة ليكون صادقًا. قد يعود إلى حاجته نفسها، ويدعو بما علمه النبي ﷺ من الخير، ويسأل الله التوفيق لما يحب. الذي يجتنب هو الإثم وقطيعة الرحم والاعتداء، فلا تصبح شدة الرغبة عذرًا في طلب ظلم أو في تعيين شر يتجاوز ما يجوز طلبه. وما التبس في الدعاء أو الحق يسأل عنه من يعلم.

ولا يصح أن يجعل شخص لنفسه سلطة على استجابة دعاء غيره. يقول له إن لم تفعل ترتيبًا معينًا فلن يقبل دعاؤك، أو إن عليك دفع مال أو كشف سر حتى يفتح لك الباب. العباد

محتاجون إلى الله جميعًا، وما ثبت من أسباب الدعاء وآدابه يتعلم من الشرع. لا توجد خبرة خاصة تخول إنسانًا ضمان الاستجابة أو بيع توقيتها، مهما كثر من يروون تأثرهم بكلامه.

إذا وجدت في نفسك تعبًا

يمكن أن تعترف أنك تعبت من الانتظار دون أن تجعل التعب آخر علاقتك بالدعاء. عد بقدر ما تقدر، ولو بكلمات قليلة تفهمها. وقد تحتاج إلى من يسمعك ويعينك في سبب ظاهر، لا إلى من يختبر قوة دعائك. لا يشترط الصدق أن تأتي في كل مرة بحماسة البداية، ولا أن تصف للناس استقرارًا لا تجده.

وتحفظ أيضًا حدود مواساة نفسك. قل أرجو فضل الله، ولا تقل إنه سيعطيني هذا غدًا لأنني شعرت اليوم بانشراح. الانشراح نعمة إن وقع، لكنه ليس وحيًا بموعد. ولو مر يوم آخر وبقيت الحاجة، تستطيع أن تدعو دون أن تحمل عبء الدفاع عن بشارة صنعتها لنفسك. الرجاء المبني على الخبر أوسع من تقلب التوقعات، ولذلك يستطيع مرافقة الانتظار الطويل.

الفصل الرابع

الاستخارة حين تريد ولا تعلم

يستطيع الإنسان أن يعرف بعض وجوه القرار، ولا يستطيع أن يحيط بعاقبته كلها. يجمع المعلومات ويستشير، ثم يبقى أمر المستقبل أوسع مما بين يديه. ولهذا كانت الاستخارة دعاءً يجمع الاعتراف بعلم الله وقدرته والافتقار إلى فضله، مع سؤال تيسير الخير وصرف الشر.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني

عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به». قال: ويسمي حاجته.[٧]

تقرأ في الدعاء شأنين معًا: رغبة في الخير، واستعداد لأن يُصرف عنك ما يكون شرًّا لك. فأنت لا تستعمل الاستخارة لتأكيد النتيجة التي قررتها قبلها، بل تسأل الله أن يقدر لك الخير حيث كان، وأن يرضيك به. وذكْر الدين والمعاش والعاقبة يوسع النظر عن اللذة القريبة وحدها.[٨]

ما تفعله قبل القرار

تبيّن أولًا حكم الأمر؛ فلا تكون الاستخارة في اقتراف محرم علمت تحريمه، ولا في ترك واجب متعين تعلم وجوبه. ثم اجمع من المعلومات ما تحتاج إليه دون إفراط يوقف كل قرار. وإذا استشرت، فاختر من يعرف المسألة ويصدقك النصيحة، لا من تتوقع منه أن يوافق رغبتك فقط.

ولا يطلب منك الحديث أن تنتظر حلمًا حتى تعمل. ليس فيه اشتراط رؤيا، ولا لون تراه، ولا رسالة عارضة تربطها بالقرار.

---

٧ البخاري، الصحيح، كتاب التهجد، حديث ١١٦٦، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

٨ البخاري، الصحيح، حديث ١١٦٦؛ وابن حجر، فتح الباري، باب الدعاء عند الاستخارة. «أو قال» لبيان اختلاف اللفظ المروي، وليست من الدعاء الذي يقوله الداعي.

تدعو بما علمك النبي ﷺ، ثم تنظر فيما تيسر من أسباب مشروعة وتتخذ قرارك بما عندك من علم ومشورة، مفوضًا عاقبته إلى الله. وما أشكل عليك من الأحكام تسأل عنه، بدل أن تفسره بعلامة لا دليل على اعتبارها.

بعد القرار

قد تختار ثم تظهر صعوبة لم تكن تتوقعها. لا يكفي ظهور الصعوبة وحده لتقول إن استخارتك لم تنفع، أو إن كل ما اخترته كان شرًّا. بعض الأعمال الصحيحة يحتاج إلى مشقة، وبعض المعلومات لا تظهر إلا بعد التجربة. انظر في حقيقة ما ظهر: هل يستلزم تصحيحًا أو رجوعًا أو صبرًا أو استشارة جديدة؟

والدعاء بصرف الشر ليس تعهدًا منك بإكمال كل ما بدأته مهما انكشف فيه. إذا تبين لك محرم فاجتنبه، وإذا ظهر ضرر معتبر فاستعن بمن يحسن تقديره. تفويض الأمر إلى الله يصحب اتباع هداه، ولا يلغي ما تعلمته من حقائق مؤثرة في القرار.

حين يخالف القرار ما كنت تتمناه

قد تستخير وتأخذ بالمشورة، ثم يقع في الأمر ما يزعجك. لا تتعجل تفسير النتيجة بأنها دليل على بطلان استخارتك، أو أن دعاءك لم يسمع. كذلك لا تجعل اختيارك الأول معصومًا من المراجعة لمجرد أنك استخرت قبله. الاستخارة عبادة وسؤال لله، ويبقى علمك بالواقع محدودًا، وقد تظهر لك معلومات جديدة تغير تقديرك لما ينبغي فعله.

تأمل مثالًا افتراضيًّا: قبل شخص عملًا بعد سؤال واستخارة، ثم تبين له أن بعض واجباته تختلف عن الوصف الذي عرض عليه. أمامه الآن واقعة تحتاج إلى استيضاح؛ يستطيع أن يسأل عن الاتفاق، ويبحث ما له وما عليه، ويستشير من يفهم في المجال. ليس محتاجًا إلى اختراع معنى غيبي للاختلاف كي يبدأ هذه الخطوات، ولا إلى اعتبار المراجعة اعتراضًا على القدر.

وتختلف مراجعة القرار عن الاسترسال في إعادة الماضي. المراجعة تسأل عن معلومة أو اختيار ينفع الحاضر: ما الذي تغير؟ وما الذي ما زلت أستطيع فعله؟ أما الدوران حول احتمالات لا نهاية لها فقد يستهلك قدرتك دون أن يزيد بيانًا.

خذ من الماضي درسًا محددًا، ثم انظر في السبب المشروع المتاح الآن.

وقد يبقى في القرار خير وضرر معًا، فلا يظهر لك جواب بسيط. هنا تحتاج إلى وزن ما تعرفه بمشورة مناسبة، لا إلى انتظار علامة لا أصل لاشتراطها. ثم إذا عزمت على فعل مباح فامض مع الاستعانة بالله، مستعدًّا لتصحيح خطأ يتبين، دون أن تشترط معرفة كل ما سيحدث كي تملك حق الحركة.

من ثمرات هذا الفهم أن يبقى الدعاء مصاحبًا لك بعد القرار، وأن يكون توكلك أوسع من الدفاع عن صواب اختيارك. ترجو أن يصلح الله لك الأمر، وتعمل على إصلاح ما تقدر عليه، وتقر بما لا تعلمه. فلا تحول التجربة المؤلمة إلى اتهام للوعد الإلهي، ولا تحول حسن الظن إلى وعد لنفسك بأن كل قرار اتخذته سينتهي إلى ما أردت.

ما لا تقوم به الاستخارة بدلًا منك

لا تختار الاستخارة نيابة عنك معلومة كنت تستطيع السؤال عنها ثم أهملتها. إذا دخلت اتفاقًا يحتاج إلى فهم شروطه فاسأل عنها، وإذا رغبت في عمل فتعرف متطلباته بقدر ما تستطيع، وإذا كان القرار يؤثر في حقوق غيرك فخذ تلك

الحقوق في حسابك. ثم استخِر الله فيما يجوز لك الاختيار فيه. تعلم الأسباب لا يسلب الدعاء معناه، بل يمنع أن يصبح الدعاء اسمًا لإهمال معلوم.

وقد لا تتوفر كل المعلومات رغم السعي. هنا تأتي حاجة القلب إلى التفويض دون أن يدعي أنه عرف ما خفي. تفرق بين نقص يمكن استكماله ونقص لا سبيل إلى رفعه في الوقت المتاح، وتستشير في تقدير المخاطر التي لا تعرفها. بعض القرارات يمكن تأجيلها، وبعضها يضيع بالتأجيل، وليس للكتاب جواب واحد عن هذا كله. إنما يحفظ لك أصول السؤال والصدق وحسن التوكل.

القرار الذي يشترك فيه غيرك

ربما استخرت في أمر ثم اعتقدت أن على الآخرين أن يوافقوك لأنك استخرت. لا تنشئ استخارتك حقًا في موافقتهم، ولا تجعل لهم حكمًا غيبيًا إن رفضوا. في الشراكات والعلاقات والمسؤوليات المشتركة لكل طرف ما له من حق، وتحتاج الخيارات إلى رضا معتبر وبيان وأداء للأمانة. الدعاء يصحح افتقارك، ولا يجعلك معصومًا من الخطأ في تصور مصلحة غيرك.

فإن اختلفتم، ناقشوا ما يتعلق بالوقائع والحقوق والقدرة، ولا تحولوا الخلاف إلى منافسة فيمن كانت استخارته أصدق. ليس عند أحدكم علم بسريرة الآخر ولا بما قدر له من عاقبة. قد يكون الرجوع إلى صاحب علم أو خبرة أو وساطة مناسبة أنفع من إطالة حديث لا يستطيع أحد التحقق من مقدماته.

الفرح بما تيسر دون قراءة الغيب

إذا تيسر الأمر فاحمد الله، وإذا لم يتيسر فاسأله الخير واستعن على ما بعده. لك أن ترى في التيسير نعمة وأن تشكره عليها، لكن لا يلزم أن تقطع بأن كل تفاصيل الاختيار صارت خيرًا محضًا لا تحتاج إلى مراجعة. وقد تفتح لك فرصة جديدة بعد فوات أخرى، فتفرح بها من غير أن تزعم أنك علمت جميع أسرار ما مضى.

وهكذا تحفظ الاستخارة موقعها: سؤال صادق لله العليم القدير، مع أداء ما على العبد من نظر وعمل. لا تجعلها جهازًا لقراءة المستقبل، ولا تنسها لأنك تعلم أن المستقبل لا يكشف لك. فائدتها ليست في إعفائك من بشريتك، بل في أن تواجه حدود علمك وقدرتك وأنت متوجه إلى ربك، طالب منه الخير حيث كان.

الفصل الخامس

توكل لا يلغي المشورة

قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٩]

جمع السياق لين الجانب والعفو والاستغفار والمشاورة، ثم جاء التوكل بعد العزم. فالأخذ بالرأي والنظر في الأمر لا يعارض اعتماد القلب على الله. وليس التوكل أن تستغني عن الناس فيما يمكن أن ينفعوك به، بل ألا تجعل ما عندهم مستقلًّا عن ربك أو ضامنًا لما لم يضمنه.[١٠]

تحتاج هذه المعرفة حين تتعدد الآراء من حولك. قد ينصحك إنسان بخبرته، وينصحك آخر من زاوية مختلفة، ويبقى عليك

---

٩ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

١٠ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير آل عمران: ١٥٩.

أن تتبين ما يناسب حالك. لا تطلب من المستشار علمًا بالغيب، ولا تجعل اختلافهم دليلًا على أن طلب المشورة عبث. غرضها أن ترى من الأمر ما لم تكن تراه، لا أن يلغي أحد عنك كل احتمال.

العزم مع بقاء احتمال الخطأ

بعض القرارات لا يأتي معها يقين كامل بنتيجتها. قد يبقى قدر من المخاطرة أو نقص المعرفة، ومع ذلك يلزم أن تتصرف في الوقت المتاح. تميّز ما يمكنك استكماله مما لا سبيل إلى معرفته، وتأخذ بالوجه الراجح بعد السؤال، وتستعين بالله. وإذا ظهر خطأ بعد ذلك، تصلحه بقدر الإمكان ولا تجعل مجرد الخطأ دليلًا على أنك لم تتوكل.

والعزم لا يعني قسوة مع من يخالفك. صدر الآية يذكرك بالرحمة ولين الجانب؛ فقد تحسن اختيار القرار ثم تسيء إلى من حولك في طريق تنفيذه. لا تجعل الثقة باسم التوكل مبررًا للاستعلاء أو إهدار الحقوق. من حسن العمل أن يكون الغرض صحيحًا والطريق إليه صحيحًا أيضًا.

الاستعانة بالناس في حدودها

تطلب ممن يقدر ما يقدر عليه: علمًا أو رأيًا أو خدمة مباحة. وتشكر إحسانه دون أن ترفع قدرته فوق حقيقتها. فإن اعتذر أو عجز، فلا يلزم أن تكون الدنيا كلها قد انقطعت بك. قد يوجد طريق آخر، وقد تحتاج إلى تعديل ما تطلبه، وقد يبقى العجز فتستعين بالله على الصبر والعمل الممكن.

اقبل إحسان الناس بطلب مشروع يحفظ الحقوق، واعرف فضل الله الذي أنعم بالأسباب. فلا تتعلق بالمخلوق تعلقًا ينسيك ربك، ولا تتمنع عن عون تحتاجه لتبدو مستغنيًا.

من تختار للمشورة

لا يكفي في المستشار أن يحبك إذا كان لا يعرف ما تسأله عنه، ولا تكفي خبرته إذا كان يخفي عنك ما يؤثر في نصيحته. ابحث بقدر ما تستطيع عن علم مناسب وأمانة واستقلال في النظر. وقد تحتاج إلى أكثر من زاوية: من يبين الحكم، ومن يفهم الواقع المهني، ومن يعرف أثر القرار في أسرتك. لا تطلب من شخص واحد أن يحيط بكل هذه الجوانب إذا لم يكن أهلًا لها.

ومن أمانة المشورة أن تبين للمستشار غرضك والقيود التي تؤثر فيه. لا تعرض خيارًا بصورة جميلة وآخر بصورة منفرة ثم تسمي موافقته دليلًا مستقلًا. ربما احتجت إلى أن تسمع السؤال الذي لا تحبه، لأنه يكشف نقصًا في تصورك. الرجاء بالله يعينك على قبول هذا القدر من انكشاف الجهل، ما دام يقربك إلى قرار أصدق.

حين يعطيك المستشار جوابًا احتماليًا

قد يقول صاحب الخبرة إنه يرجح وجهًا ولا يضمنه. لا تعد ذلك فشلًا في المشورة؛ فكثير من القرارات لا يملك فيها البشر ضمان العاقبة. اسأله عما يرجح به، وما الذي قد يغير تقديره، وما الذي يحتاج إلى تحقق قبل التنفيذ. هذه الأسئلة تحول الاستشارة إلى معرفة تنتفع بها، بدل أن تكون محاولة للحصول على من يحمل عنك مسؤولية الاختيار كلها.

وإذا وقع خلاف المتوقع، فلا تتعجل اتهام من نصحك ما دام قد أدى أمانته وبين حدود علمه. راجع ما تغير من الوقائع، وما فهمته أنت من الجواب، وما كان ينبغي التحقق منه. أما إن ثبت غش أو إخفاء مؤثر فلذلك حكمه وحقه، ولا يلغيه

الكلام عن التوكل. التفصيل يحفظ العدالة بين خطأ محتمل في الاجتهاد وبين تقصير أو خيانة تحتاج إلى معالجة.

العزم بعد انتهاء النظر الممكن

قد يصير طلب المشورة وسيلة إلى تعطيل القرار؛ كلما أجاب شخص بحث السائل عمن يرفع عنه آخر احتمال. لن يحصل غالبًا على معرفة تستوعب كل مستقبل. عين السؤال الحقيقي الذي بقي، فإن لم يبق إلا طلب ضمان لا يملكه أحد، فاعرف أن هذا خارج وظيفة المشورة. تعزم على ما ترجح لك من مشروع، وتسأل الله التوفيق، وتبقى قابلًا لتصحيح ما يظهر.

ولا يقتضي العزم انقطاع الحوار مع من يتأثر بالقرار. قد تظهر لهم معلومة لم تكن عندك، وقد يحتاج التنفيذ إلى تعديل. الثبات على المقصد الصحيح يختلف عن الجمود على كل وسيلة اختيرت أولًا. من حسن التوكل أن تحفظ الغاية المشروعة وتصلح الطريق إليها، لا أن تدافع عن قرارك حتى بعد ظهور ما يوجب مراجعته.

الفصل السادس

الرجاء والخوف في قلب واحد

قد يظن بعض الناس أن حسن الظن يوجب أن يزول الخوف من الذنب، أو أن الخوف لا يصح إلا إذا ضعف الرجاء. والعبد يحتاج إلى المعنيين: يرجو فضل ربه، ويخاف أن يقصر في حقه أو يصر على ما حرّم. فلا يأمن حتى يترك العمل، ولا ييأس حتى يترك الرجوع.

ويختلف ما يحتاج إلى تذكير أقوى باختلاف الحال. من قنط بعد ذنب يحتاج إلى أن يسمع ما يفتح له باب التوبة، ومن اتخذ الرحمة حجة للإصرار يحتاج إلى أن يسمع ما يوقظه إلى خطر فعله. لا يعالج الجميع بالكلمة نفسها، ولا يجعل الواعظ أثر التخويف أو التطمين على شخص واحد معيارًا لكل الناس.

القلق ليس حكمًا على الاعتقاد

قد يخاف المرء من المرض أو الفقد، مع تصديقه برحمة الله وحكمته. وقد تعرض له فكرة يكرهها ولا يختارها. لا يصح أن نحكم على اعتقاده بمجرد وجود خوف أو خاطر عابر؛

فالمعاني التي يصدقها ويختارها ويعمل بها تحتاج إلى نظر مختلف عن انفعال جاءه بغير اختياره.

ومن جهة أخرى، لا تجعل هذا الفرق ذريعة لتبرير كل قول. إذا تكلم الإنسان بما لا يليق بالله، تعلّم الخطأ وصححه ورجع عنه. الرفق يعينه على الرجوع، ولا يغير حكم العبارة. وقد يحتاج في وسواس متكرر أو ضيق شديد إلى مساعدة مختص مؤهل؛ ولا تُغنيه كثرة محاكمة نفسه دينيًّا عن مساعدة يحتاج إليها.

حين تكون نهاية العمر قريبة

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن».[١١]

هذا توجيه عظيم إلى حسن الظن عند الموت. وحين تزور مريضًا يخشى لقاء ربه، فليكن كلامك رحيمًا صادقًا، يذكره بفضل الله ويدعوه إلى ما يطيق من خير. لا تمنحه شهادة

---

١١ مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث ٢٨٧٧، عن جابر رضي الله عنه.

غيبية بالنجاة، ولا تحمله في ضعفه على استعراض كل خطأ مضى عليه. وقد تحتاج حالته إلى سكوت رفيق أو دعاء قصير أكثر من حاجتها إلى خطاب طويل.

وتظل الحقوق الممكنة موضع عناية: وصية بما يلزم، وأمانة تؤدى، وطلب عون على شأن لم يستكمله. الرجاء لا يناقض هذه العناية؛ بل يعين عليها من غير هلع. وقد يعجز عن كثير مما كان يفعله، فيذكره من حوله بما يعرف من رحمة الله، ويعينونه على المتاح.

ما الذي يفعله الخوف في اختيارك

انظر إلى أثر الخوف بدل أن تكتفي بشدته. قد يكون باعثًا على تعلم ما يصح به عملك، أو على ترك ظلم تعرفه، أو على الاستغفار من تقصير. وقد يتحول إلى قنوط يقطع التوبة، أو إلى اتهام لكل خاطر، أو إلى ترك واجب خشية أنك لن تؤديه على صورة متوهمة من الكمال. لا يعالج هذان الأثران بالطريقة نفسها. الأول يضبط بالعلم والاعتدال، والثاني يحتاج إلى تصحيح المعنى والعون الذي يناسب صاحبه.

والرجاء كذلك ينظر في أثره. إذا فتح لك باب العمل وأعانك على العودة فهو في جهته النافعة، وإذا جعلك تستريح إلى

ظلم مستمر وتحتج بالرحمة على كل من يطالبك بحقه فقد اختلط بمعنى آخر. لا تزن عمل القلب باسم جميل أطلقته عليه، بل رده إلى ما دل عليه الشرع من معرفة وفعل وحدود.

خطاب يختلف باختلاف الحاجة

قد يكون أمامك شخصان ارتكبا الخطأ نفسه في الظاهر، لكن أحدهما يعرف خطأه ويكاد ييأس، والآخر يسخر من النصح ويصر. تحتاج إلى علم بالواقعة وقدر من الفهم لحالهما كي تختار ما تقول. ليس كل تشديد قوة في الدين، ولا كل تليين رحمة نافعة. القول الصحيح يؤدى على وجه يقرب صاحبه إلى الحق، من غير تزييف للحكم ولا دعوى إحاطة بسريرته.

ومن الحكمة أن يقل كلامك إذا لم تعرف ما يحتاجه الشخص. يمكنك أن تسأله سؤالًا يوضح الإشكال، أو أن تدله على من يحسن الجواب، أو أن تعينه في حق ظاهر. قد تؤذي عبارة عامة حين تدخل في موضع حساس بلا فهم، كأن تجعل مرضه نتيجة لازمة لذنب، أو تعده بأن كل ألم يثبت له منزلة مخصوصة. لا يتطلب صدق المواساة هذا الجزم.

الرجاء عند انحسار القدرة

حين يضعف الجسد قد يتغير ما يقدر عليه الإنسان من العمل، وتبقى له أحكام تناسب حاله يتعلمها. لا يقيس نفسه دائمًا على أيام الصحة، ولا يترك ما يستطيع لأن بعض ما اعتاده قد تعذر. وقد يحتاج إلى من يعينه على السؤال والعبادة وأداء الحقوق. في هذا الموضع تتقدم رحمة الكلام وقصره وصدق مضمونه على كثرة الوعظ.

ولا يتحول رجاء حسن الخاتمة إلى صناعة خوف في كل ساعة من الموت. يتذكر المرء ما ينفعه من الاستعداد، ويؤدي ما عليه، ويسأل الله الثبات والعفو. وإذا كان الانشغال بالموت يعطله ويزيد ضيقه، فلا يسترسل مع مزيد من المواد التي تثيره بلا نفع؛ يطلب عونًا مناسبًا، ويحفظ من التذكير ما يعينه على العبادة والحياة. الرجاء يريد للإنسان أن يمضي إلى الله، لا أن يقضي عمره في محاكمة شعوره تجاه النهاية.

الفصل السابع

الرجاء والاغترار: ماذا يفعل الأمل في عملك؟

قد يتشابه كلام اثنين عن رحمة الله، ثم يختلف طريقهما بعد الكلام. يستغفر أحدهما ويبدأ بإصلاح ما يستطيع، بينما يؤجل الآخر إصلاحًا يعرفه ويجعل الرحمة جوابًا عن كل من يذكّره. الفرق لا يظهر في حلاوة العبارة وحدها، بل في الوجهة التي تحمل إليها صاحبها. هل تجعله أقدر على الرجوع، أم تمنحه حجة للبقاء حيث يعلم أنه مخطئ؟

قال ابن القيم:

«وأن حسن الظن إن حمل على العمل، وحث عليه، وساق إليه، فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور».[١٢]

يعين هذا الضابط على فهم موضع الخلل دون أن يتحول إلى حكم شامل على أقدار الناس. فالكلام يميز معنى من معنى وأثرًا من أثر؛ ولا يمنحك علمًا بسريرة كل من ضعف أو تأخر.

---

١٢ ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، فصل الفرق بين حسن الظن والغرور.

قد يعرف الإنسان الطريق ثم يعجز عن بعضه، وقد يقع ثم يندم ويحاول، وقد يحتاج إلى تعليم لم يجده. لا يصح أن تسوّي هذه الأحوال كلها بحال من جعل الرجاء تصريحًا لنفسه بالإقامة على الذنب.

الإصرار ليس كل تعثر

من المهم للقلب المذنب أن يفهم هذا الفرق. إذا وقعت في ذنب بعد توبة، فواجبك أن ترجع وتستغفر وتصلح ما يلزم، لا أن تستنتج أن كل رجائك السابق كان كذبًا. تكرر الخطأ يوجب مزيدًا من العناية بأسبابه وبالتوبة منه، لكنه لا يجعل اليأس طريقًا إلى الصدق. وقد سبق في المجلد الأول بيان التوبة المتجددة وشروطها وحدود الاستدلال بأحاديثها؛ والمقصود هنا أثر الرجاء في الخطوة التالية.

اسأل سؤالًا قريبًا من الواقع: ما العمل الذي أعرف أنه يلزمني الآن، ثم أستعمل كلامًا عن الرحمة لأهرب منه؟ ربما كان رد مال، أو وقف أذى، أو ترك خداع، أو تعلم حكم. إذا وجدت شيئًا من ذلك فلا تجعل السؤال مناسبة لجلد نفسك طويلًا. سمّ الفعل وحدد ما تستطيعه فيه، وما يحتاج إلى سؤال أو

عون. هكذا يخرج الرجاء من العبارة العامة إلى أثر يمكن أن تراه في اختيارك.

وفي المقابل، لا تضع لنفسك شرطًا لا تطيقه ثم تحكم أن فشلك فيه دليل على فساد رجائك. من قرر إصلاح جميع علاقاته في يوم واحد قد يعجز، ومن ألزم نفسه بصورة من النوافل تزاحم واجبه قد ينقطع. تصحيح المقدار والطريقة جزء من حسن العمل. الرجاء الصادق لا يمنعك من التعلم على مهل، ولا يوجب أن يبدو كل إصلاح كبيرًا في عين من يراه.

الثقة بالوعد ومعرفة حال النفس

نثق بصدق الله فيما وعد، ونعلم أن عملنا يحتاج إلى إخلاص ومتابعة وصلاح. هاتان المعرفتان لا تتنافيان. يستطيع التائب أن يرجو قبول توبته وأن يجتهد في صدقها، دون أن يقول إن الوعد لا يخصه مهما رجع. ويستطيع العامل أن يرجو فضل الله دون أن يزعم أنه أحاط بكل ما في نيته وعمله من نقص.

وقد وصل أبو العباس القرطبي في شرحه بين رجاء القبول والاجتهاد في أداء ما على العبد، وحذر من تحويل الرجاء إلى اتكال مع الإصرار. والمقصود أن حسن الظن يتعلق بصدق الوعد والرحمة، ويصحبه قيام العبد بما كلف به. لا يستخرج

من ذلك اشتراط إحساس دائم بالقبول، ولا عصمة العامل من الخوف أو التردد.[١٣]

قد تقول: أخاف ألا يكون عملي مقبولًا. انظر إلى ما يحملك عليه هذا الخوف. إن دفعك إلى تعلم السنة وإصلاح قصدك والاستغفار فله وجه نافع. وإن جعلك تترك عملًا مشروعًا، أو تعيد تفتيش نيتك بلا نهاية، أو تجزم أن الله لن يقبل منك شيئًا، فقد خرج بك إلى معنى آخر يحتاج إلى تصحيح وعون. ليس المطلوب أن تبني رجاءك على تزكية نفسك، بل على معرفة ربك مع بذل ما تستطيع من الصدق.

كيف تذكّر من تحب؟

قد ترى في قريب لك تساهلًا، فيحملك خوفك عليه على خطاب لا يسمع فيه إلا الإدانة. وربما أردت أن تمنعه من الاغترار فقطعت عليه كل رجاء. لا تجعل النصيحة تزاحم باب العودة الذي تريد أن يدخل منه. بين الخطأ بقدر علمك، واذكر ما يمكن إصلاحه، وافتح له طريق السؤال عما التبس عليه.

---

١٣ أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، كتاب الأذكار والدعوات، باب الترغيب في ذكر الله تعالى، ج٦ ص٥–٦ بحسب العرض الرقمي؛ نقل بالمعنى.

فالتعنيف الذي يهدم الشخص كله قد يصرف الحديث عن الفعل الذي يحتاج إلى إصلاح.

وقد يقع الخطأ في الاتجاه الآخر؛ فتريد مواساته فلا تسمي خطأ واضحًا، أو تعده أن كل شيء سيزول من غير رد حق ولا تغيير فعل. هذه مواساة تؤجل الألم وربما تزيده. تستطيع أن تجمع اللطف والوضوح: ما وقع يحتاج إلى إصلاح، وباب التوبة مفتوح، ولنبدأ بما يلزم الآن. لا تحتاج في ذلك إلى وعد بنتيجة دنيوية خاصة كي يكون كلامك رحيمًا.

وربما كنت أنت المحتاج إلى هذه النصيحة. لا تنتظر أن تصبح قصتك جميلة حتى تعرض موضع السؤال على من تثق بعلمه وأمانته. قل ما يلزم لفهم المسألة، واحفظ ستر ما لا حاجة إلى كشفه، ثم اعمل بالبيان الذي يتضح لك. الرجاء يعطيك الشجاعة على الاعتراف بموضع الخلل، لأنك لا تجعل الخلل آخر تعريف لك ولا نهاية الطريق أمامك.

الفصل الثامن

حين لا يبقى قلبك على حال واحدة

قد تخرج من مجلس علم وقد رق قلبك، ثم تعود إلى عملك وأهلك فتشغلك التفاصيل اليومية. تسأل نفسك: أين ذهب ذلك الحضور؟ ويكبر السؤال أحيانًا حتى تظن أن تفاوت شعورك يكشف نفاقًا أو يبطل صدق ما عشته. قبل هذا الحكم اقرأ خبر حنظلة رضي الله عنه بلفظه، وانتبه إلى نوع الانشغال الذي وصفه وإلى الجواب الذي تلقاه.

عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه قال:

لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ «وما ذاك». قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا

خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا. فقال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة». ثلاث مرات.[١٤]

المعايش التي ذكرها حنظلة هي الاشتغال بالأهل والمال والعمل. وقد بيّن النووي أن خوفه نشأ من اختلاف حاله بين مجلس النبي ﷺ وبين هذه الأشغال، وأن النبي ﷺ أعلمهم أن ذلك ليس بنفاق، وأنهم لا يكلفون دوام الحال الأولى. فقوله «ساعة وساعة» في هذا السياق لا يجعل المعصية جزءًا مأذونًا فيه من توازن الحياة.[١٥]

حضور يتفاوت وواجب يبقى

فرق بين أن تنشغل بإطعام أهلك أو أداء مهنتك، وبين أن تتخذ الانشغال حجة لترك واجب تعرفه. الأول من أحوال الحياة التي لا تظل معها درجة استحضارك واحدة، والثاني

---

١٤ مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، حديث ٢٧٥٠، عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه.

١٥ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، شرح حديث ٢٧٥٠.

فعل يحتاج إلى نظر في حكمه وإصلاحه. حين تخلط بينهما تضيق بما أباح الله، أو توسع لنفسك فيما لم يبح. وفهم الفرق يعينك على العيش بصدق دون قسوة أو تساهل.

لا تستطيع أن تجعل يومك كله شبيهًا بالدقائق التي رق فيها قلبك عند سماع آية. تستطيع أن تحافظ على فرائضك، وأن تتعلم ما تحتاجه من دينك، وأن تعود إلى الذكر والدعاء، وأن تؤدي حقوقًا قائمة عليك. قد تفعل ذلك وأنت أقل انفعالًا، لكن ضعف الانفعال وحده لا يحسم قيمة العمل ولا حقيقته. بعض أعمال اليوم يحتاج إلى حضور مسؤول أكثر مما يحتاج إلى شعور مرتفع.

وانظر إلى ما تصنعه المطالبة المستمرة بالإحساس. قد تشغلك عن معنى العبادة إلى مراقبة نفسك داخلها: هل تأثرت بما يكفي؟ هل أحسست كما أحسست أمس؟ ثم تصير المقارنة نفسها عبئًا جديدًا. يمكنك أن تتعلم الخشوع وأسباب الحضور، لكنك لست مكلفًا بإنتاج حالة عاطفية بعينها كل مرة. فإذا طرأ ما يقطع انتباهك، فارجع إلى العمل الذي بين يديك بما تستطيع.

لا تشخّص نفسك من لحظة

ربما رأيت جفافًا في دمعتك، أو بطئًا في نشاطك، فأسرعت إلى حكم نهائي على قلبك. لا تختزل حال الإنسان في عرض واحد. اسأل عما تعرفه من فعل: هل تركت واجبًا؟ هل استرسلت في سبب تعلم ضرره؟ هل تحتاج إلى راحة مباحة أو إلى ترتيب مسؤولياتك؟ هذه أسئلة أقرب إلى الإصلاح من إطلاق وصف كبير ثم العجز عن معرفة ما يلزم بعده.

وإذا استمر ضيق شديد يعطل حياتك، فطلب العون المناسب لا يناقض حسن الظن. لا يصح أن يُجعل خبر حنظلة تشخيصًا لكل تعب نفسي، ولا أن يقال لمن يعاني إن حاجته كلها تنتهي بقراءة الحديث مرة. الحديث يصحح فهمًا دينيًّا محددًا، وتبقى لكل حال أسبابها واحتياجاتها التي لا نحيط بها من وصف عابر.

ومن اللطف بالآخرين ألا تطالبهم بإظهار إيمانهم بالطريقة التي تظهره بها أنت. قد يسكت إنسان عند الموعظة ويتأثر آخر، وقد يكون في الساكت من الصدق ما لا تعلم. لا تجعل دمعة أحد ولا هدوءه شهادة نهائية له أو عليه. أما العمل الظاهر الذي يتعلق بحقوق الناس فله أحكامه، ولا يمنعنا الجهل بالسريرة من طلب أداء حق معلوم.

حياة تتسع للعودة

ليست عودة القلب إلى الذكر اعترافًا بأن كل ما بين الذكرين كان ضياعًا. قد تكون قد قضيت حاجة أهل، أو أديت أمانة عمل، أو أرحت جسدًا يتقوى على واجبه. أصلح قصدك فيما تفعل، وتعلم حكمه عند الحاجة، وأعط كل حق قدره. هذه المعاني تساعدك على رؤية يومك من غير أن تمزقه إلى لحظات تتهم فيها نفسك ولحظات تحاول فيها إثبات براءتها.

وإذا وجدت ذنبًا فتب منه ولا تبرره بالتوازن. ميّز المباح من الواجب والذنب، ليعينك رجاؤك على الإصلاح دون تفريط أو قنوط.

الفصل التاسع

قلبك وعملك: ما الذي ترجوه من فعل الخير؟

حين تقدم معروفًا، قد يجتمع في خاطرك أكثر من معنى. تحب نفع من أمامك، وترجو الأجر، وربما تحب أن يشكرك. وحين تتعلم، تريد رفع الجهل عن نفسك، وقد يسرك أن يحترم الناس علمك. هذه المواضع تحتاج إلى تربية القصد، لكنها لا تعالج بتخمين متكرر يجعلك عاجزًا عن كل عمل. ابدأ بمعرفة ما يدل عليه النص، ثم انظر إلى ما تستطيع إصلاحه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١٦]

يتبين من الحديث أن الأعمال لا تفهم بصورتها الظاهرة وحدها؛ فالقصد له شأنه، وما يقصده الإنسان من فعله ليس

---

١٦ البخاري، الصحيح، أول كتاب بدء الوحي، حديث ١، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. اللفظ لأول الصحيح.

تفصيلًا زائدًا عن حقيقته. وقد تتشابه صورتان أمام الناس وتختلف الوجهة التي يحملها صاحب كل منهما. لذلك يحتاج رجاؤك إلى عناية بما تعمل ولمن تعمل، لا إلى الإعجاب بصورة العمل وحدها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١٧]

يجمع الحديث القلوب والأعمال. فلا يُجعل صلاح القلب دعوى يستغنى بها عن العمل، ولا يجعل العمل الظاهر حجة على كمال الباطن. والمال والصورة ليسا ميزانًا يكفي للحكم على منزلة المرء. قد تلتفت العيون إلى من يملك أكثر أو يظهر أقدر، لكنك مطالب بإصلاح ما يرجع إليك من قلب وعمل، دون ادعاء أنك أحطت بما في قلوب الآخرين.

---

١٧ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٢٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القصد الذي تصلحه قبل العمل وفي أثنائه

من صور العناية بالقصد أن تعرف المنفعة المشروعة التي تريدها. قبل أن تتكلم، اسأل هل في الكلام بيان يحتاجه سامعه، وهل أنا من أهل بيان هذه المسألة؟ وقبل أن تعطي، انظر هل تعين محتاجًا بما يليق وتحفظ حقه، أم تجعل حاجته وسيلة إلى إعلان فضلك؟ ليس المقصود أن تؤخر كل فعل لتكتب له تبريرًا طويلًا، بل أن تنتبه إذا ظهر لك قصد فاسد تستطيع دفعه.

وقد يبدأ العمل بقصد حسن ثم يدخل عليه حب الظهور. يمكنك أن تجدد قصدك وتصحح طريقتك، كأن تقلل حديثك عن نفسك أو تحفظ ما ينبغي ستره. لا يلزم أن تهدم العمل كله بسبب خاطر عابر، ولا أن تطمئن إلى كل خاطر لأن البداية كانت حسنة. تمضي في الخير مع المراجعة بقدر سببها، وتستغفر من نقص تعلمه أو لا تعلمه.

وإذا كنت تبتلى بتكرار التفتيش حتى تعيد نيتك وتشك فيها كل مرة، فلا تجعل هذه الصفحات سببًا لمزيد من الدوران. النية ليست عبارة سرية تبحث عن إحساس مخصوص يصادق عليها. اعمل بما تعرف مشروعيته، واطلب بيانًا علميًّا

أو مساعدة مناسبة فيما أشكل عليك، ولا تحول كل احتمال إلى مانع جديد من العبادة والعمل.

لا تستخدم الباطن لإسقاط الحق الظاهر

قد يقول شخص إنه لم يقصد الأذى، مع أن فعله أضر بغيره. معرفة قصده من جهة، وإصلاح الضرر من جهة أخرى. يمكن أن يصدق في عدم التعمد، ثم يلزمه اعتذار أو رد حق بحسب الواقعة وحكمها. حسن القصد لا يجعل الكلمة الجارحة لطيفة، ولا يحول المعلومة غير المتحققة إلى خبر صحيح، ولا يغني عن تعلم مهارة يحتاجها أداء الأمانة.

ومن حسن الظن بالله أن ترجوه وأنت تقبل هذه المسؤولية. لا تجعل اعترافك بخطأ في عملك تهديدًا لا بد من دفعه بالدفاع عن نقاء قلبك. تستطيع أن تقول: أردت خيرًا، وأخطأت في الطريقة، وسأصلح ما أقدر عليه. في هذا الصدق مجال للنمو، بينما تضيق النفس إذا ربطت رجاءها بضرورة أن تبدو مصيبة في كل تصرف.

وكذلك لا تجعل نجاح الصورة الخارجية يغنيك عن مراجعة أصل الفعل. قد يكثر الثناء على كلام غير منضبط، وقد يحب الناس مبادرة ضاع فيها حق ضعيف. تقدير الجمهور ليس

دليلًا كافيًا على المشروعية ولا على القبول. تعلم ما يلزم، واعرض المشتبه على من يحسن النظر فيه، ثم ارج فضل الله بما تعلم من صدق وعده، لا بمقدار التصفيق الذي سمعته.

راحة من المقارنة بين السرائر

حين تفهم موضع القلب والعمل، يقل احتياجك إلى ترتيب الناس في قائمة لا تملك مفاتيحها. تنتفع بخير من أحسن، وتنكر خطأ ظاهرًا بقدر علمك وحكمته، ولا تستخرج من ذلك قصة كاملة عن باطن صاحبه. وتترك لنفسك كذلك فرصة الإصلاح دون أن تصدر عليها حكمًا أخيرًا من كل تعثر.

ليس مطلوبًا أن تعلم أنك أفضل الناس قصدًا حتى ترجو رحمة الله. المطلوب أن تصدق في الطلب، وأن تصلح ما تبين لك، وأن تسأل القبول وأنت تعلم حاجتك. فإذا انتهيت من عمل صالح، فاحمد الله على ما يسر، واستغفر من نقصه، ثم أدّ حق العمل الذي يليه. يحمل الرجاء قلبك إلى الأمام حين يقترن بهذا الصدق؛ فلا تحتاج أن تعيش أسيرًا لصورة ماضية تمدحها أو تذمها كل يوم.

الفصل العاشر

الصدق حين يصبح الاعتراف مكلفًا

قد يسهل على الإنسان أن يمدح الصدق ما دام لم يدفع ثمنه. فإذا وقع في تقصير، وصار الاعتراف يهدد صورته أمام من يحب، ظهرت حاجته إلى رجاء أعمق من رجاء النجاة من حرج اللحظة. يرجو أن يسلمه الله من تبعة الكذب، وأن يفتح له باب الإصلاح، ولو احتاج هذا الباب إلى احتمال لوم أو انتظار. ومن أوسع الأخبار بيانًا لهذا المعنى خبر كعب بن مالك رضي الله عنه في تخلفه عن غزوة تبوك.

نقرأ الخبر كما رواه كعب، بما فيه من إقرار بتقصيره ووصف لما مر به. لا نضع على لسانه حوارًا لم يقله، ولا نجعل تفاصيل الحكم النبوي في تلك الواقعة صلاحية عامة لمعاقبة الناس بالطريقة نفسها. وفي الرواية طول نافع؛ إذ تكشف كيف بدأ التأجيل، وكيف حاول صاحبه التخلص من عاقبته، ثم كيف حمله الصدق على طريق لم يكن يعرف نهايته وهو يسلكه.

أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال سمعت كعب بن مالك، يحدث حين تخلف عن قصة،

تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف، عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك " ما فعل كعب ".

فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفه. فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأى من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه

ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال " تعال ".

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي " ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ". فقلت بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ " أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك ".

فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل

لقي هذا معي أحد قالوا نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي.

فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما إسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته.

فقال الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار، قال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلى كتابا من ملك غسان، فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء.

فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال " لا ولكن لا يقربك ". قالت إنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن

فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك، أبشر.

قال فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبى مبشرون، وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبى، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بالتوبة، يقولون لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى

صافحني وهناني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ". قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال " لا، بل من عند الله ".

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ".

قلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين} إلى قوله {وكونوا مع الصادقين} فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي

لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم} إلى قوله {فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين}.

قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.[١٨]

قبل أن يبدو التقصير كبيرًا

لم يصف كعب نفسه يوم الخروج بأنه فاقد القدرة. ذكر سعة المال وقوة البدن، ثم وصف الخروج للتهيؤ والرجوع دون إنجاز. هذه الدقة في تسمية الحال جزء من أمانة قصته. كانت عنده قدرة، ولم يستعملها في وقتها؛ فلا ينسب إلى ضعف قاهر ما يعلم أنه كان فيه تأخيرًا منه. وفي المقابل لا

---

١٨ البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، حديث ٤٤١٨، عن عبد الله بن كعب عن أبيه رضي الله عنه.

يجوز لنا أن ننقل اعترافه إلى كل متأخر فنحكم بأن الأعذار كلها مصطنعة. عرف كعب حاله فأخبر عنها، ونحن لا نحيط بأحوال الناس.

يبدأ بعض التفريط بجملة تبدو مطمئنة: أستطيع أن أفعل ذلك لاحقًا. وقد تكون صحيحة من جهة القدرة المجردة، لكنها تغفل أن الفعل له وقت، وأن الظروف لا تنتظر استعداد النفس بلا نهاية. من كان يستطيع اليوم لا يملك أن يجعل استطاعته ضمانًا للغد. وحسن الظن بالله يعينه على استعمال القدرة الحاضرة؛ فلا يجعل ما يعرف من فضل ربه حجة لتضييع الفرصة ثم مطالبة الحياة بأن تعود إلى الموضع نفسه.

انظر إلى أمر محدود يتكرر تأجيله: جواب يلزم إرساله، أو حق حان أداؤه، أو سؤال لا يحسن العمل قبله. قد يشغلك التفكير في استعداد كامل عن أداء المقدار الذي يلزم الآن. ليس كل تأخير ذنبًا، لكن التأخير الذي يضيع به واجب يحتاج إلى إصلاح يتصل بالفعل والوقت، لا إلى حديث عام عن حسن النية. تملك أن تبدأ بما اتضح، وأن تستعين فيما عجزت عنه، وأن تفرق بين عدم القدرة وعدم البدء.

وفي الرواية خير لمن وقع منه تقصير؛ إذ بقي لصاحبها إيمانه وسابقته، ولم يكن الاعتراف إسقاطًا لكل خير مضى. غير أن

السابقة لم تتحول إلى عذر يلغي خطأ حاضرًا. يجتمع الأمران في نظر عادل: يُحفظ خير الإنسان، ويُسمّى تقصيره، ويفتح له باب الرجوع. أما النفس فتضطرب حين تتوهم أن أمامها خيارين فقط: البراءة الكاملة أو السقوط الكامل. بين هذين الوصفين تقع حياة بشر يطيعون ويقصرون ويتوبون.

حين تبدو الحيلة أقرب من النجاة

كان كعب يعرف قدرته على الكلام. والقدرة التي تستعمل في بيان الحق يمكن أن تستعمل في تزيين العذر. ليست فصاحة الحجة دليلًا على صدقها؛ فقد يرتب الإنسان عبارات يعرف أنها ستؤثر في السامع، ثم يغيب عنه أن رضا السامع لا يغير حقيقة ما وقع. وحين يكون الرجاء بالله حاضرًا، لا يعود إخفاء الأمر عن الناس هو الغاية التي تبتلع كل غاية أخرى.

لا يحتاج القارئ إلى حادثة بحجم تبوك ليفهم هذا الموضع. في العمل قد يكتب تقريرًا يوهم أنه أنجز ما لم ينجزه. وفي البيت قد يختار من القصة ما يبرئه ويحذف ما يثبت حق غيره. وفي التعلم قد ينسب لنفسه جهدًا لم يبذله. هذه أمثلة افتراضية متفاوتة الأحكام، يجمعها إغراء الصورة المقبولة.

والمطلوب أن يسأل عن صدق ما سيقوله، لا عن قدرته على جعل الآخرين يصدقونه فقط.

وقد يكون الاعتراف نفسه محتاجًا إلى فقه. ليست كل معصية سرية مما يؤمر صاحبه بإشاعته، وليست الخصوصية ترخيصًا لإضاعة حقوق الآخرين. لذلك لا يستخرج من خبر كعب أمر عام بنشر كل ذنب أو بعرض الأسرار على الناس. كعب أجاب رسول الله ﷺ عن واقعة تتعلق بأمر ظاهر معلوم، وأما القارئ فيتعلم أحكام التوبة ورد الحقوق والستر بحسب الواقعة. الصدق يمنع الكذب؛ ولا يعني أن كل إنسان يملك حق السؤال عن كل شيء في حياتك.

وتظهر هنا فائدة الرجاء: تستطيع أن تقبل إصلاحًا مكلفًا لأنك لا تحصر الخير في بقاء صورتك بلا خدش. قد تعتذر اعتذارًا لازمًا، أو تصحح تقريرًا، أو ترد مالًا، دون ضمان أن يسارع الناس إلى مسامحتك. ترجُ ثواب الصدق وأداء الحق، وتسأل الله أن يحسن العاقبة، وتتحمل ما لا تستطيع محوه من آثار فعلك. هذا رجاء يعمل في الواقع، ولا يطالب الواقع بأن يمحو كل تبعة كي يثبت أنه نافع.

الناس لا يملكون أن يختصروا لك زمن الابتلاء

في الخبر انتظار ثقيل، وتغير في معاملة الناس، ودمع وصفه صاحبه. لم يحك كعب عن نفسه طمأنينة حسية لا تنقطع، ولم يجعل الصدق بابًا لراحة عاجلة في كل ساعة. ومن الخطأ أن نعد من اختار الحق بأن الناس سيحبونه فورًا أو بأن الطريق سيصير سهلًا؛ قد يكون الخير في استقامة الاختيار مع مشقة أثره القريب.

والهجر الذي جرى حكم نبوي في واقعة معينة. لا يستبيح به أفراد الأسرة أو جماعة الأصحاب أن يفرضوا عزلًا مؤذيًا على من أخطأ، ولا أن يجعلوا الضغط النفسي وسيلة مضمونة إلى إصلاحه. أحكام الهجر ووسائله ومصالحه ومفاسده لها بحثها عند أهل العلم، وليست كل صورة شبيهة في ظاهرها مماثلة للواقعة. الذي نتعلمه هنا أن كعبًا ثبت على الصدق في حكم صدر عن النبي ﷺ، لا أن كل من يعاقب غيره يملك منزلته أو علمه أو سلطانه.

وحين ضاق عليه الأمر، جاءه عرض يلبس ثوب المواساة. لم يقرأ العرض منفصلًا عما يجره إليه، ولم يجعل حاجة نفسه إلى الاحتضان دليلًا كافيًا على سلامة الباب المفتوح. قد يكون الإنسان في حال ضعف فينجذب إلى من يقول له ما يحب

سماعه، ثم يدعوه إلى ترك حق يعرفه. التمييز بين الرحمة الصادقة واستغلال الضعف يحتاج إلى أن تبقى المبادئ حاضرة حتى حين تتعب النفس من الوحدة.

ولا يعني ذلك سوء الظن بكل من يساعدك. إنما تنظر إلى ما يطلبه منك مع مساعدته. من يعينك على الصدق ورد الحق غير من يشترط أن تنكر خطأك، أو تعادي من لم يظلمك، أو تدخل طريقًا محرمًا. قد يكون العون قليل الكلام كثير النفع، وقد تكون العبارات الحانية ستارًا لالتزام لا يحل. حسن الظن بالله يمنع أن تجعل حاجتك مسوّغًا لقبول كل ثمن يعرض عليك باسم النجاة.

ما الذي بقي بعد البشارة

حين جاءت البشارة لم تنته القصة عند الفرح. حضر الشكر، وظهر أثر الصدق في العزم على ملازمته. وأراد كعب إخراج ماله كله، فجاء التوجيه النبوي بإمساك بعضه. في هذا تصحيح نافع لحماسة ما بعد النجاة؛ فليست المبالغة في بذل كل ما يملك المرء دليلًا لازمًا على صدق شكره. يتعلم كيف يشكر على وجه صحيح، ويحفظ ما ينبغي حفظه من الأسباب والحقوق.

من خرج من أزمة قد يريد أن يعد وعودًا واسعة في ساعة انفعال: لن أضعف أبدًا، وسأغير حياتي كلها، وسأترك كل ما اعتدته. بعض هذه العبارات أكبر من علمه وقدرته، وربما حملته على مشقة تنتهي بانقطاع. الأصدق أن يعتزم الاستقامة، ويعين ما ظهر من سبب الخطأ ليعالجه، ويسأل الله الثبات. لا يشترط الرجاء أن يصوغ الإنسان لنفسه عصمة من المستقبل، بل أن يرجع إلى ربه كلما احتاج إلى الهداية.

وبقي لكعب ذكر حسن لصاحبه الذي قام إليه يهنئه. ليست النصرة دائمًا فكرة كبيرة أو خطابًا بليغًا؛ قد تكون استقبالًا كريمًا لا يختزل الإنسان في زلته. فيمن حولك من يحتاج بعد إصلاحه إلى أن يجد مكانًا يعود إليه، لا إلى أن يذكّره الجميع بأسوأ يوم من حياته. احفظ الحق ولا تحيِ التهمة بعد زوال موجبها، وافرح برجوع الناس كما تحب أن يفرحوا برجوعك.

تقرأ القصة فتتعلم أن طريق الصدق قد يضيق في أوله ولا يضيع عند الله. ولا تستخرج منها وعدًا بأن كل توبة ستظهر للناس بشارتها، أو أن كل أزمة ستنتهي بعد عدد الليالي نفسه. خاتمة كعب ثبتت بالوحي والخبر الصحيح؛ وأما أنت فترجو الله، وتصلح ما عليك، وتؤمن أن علمه وعدله ورحمته أوسع من اللحظة التي تقف فيها.

الفصل الحادي عشر

عمل لا يراه أحد ثم تحتاج إليه

في الحياة أعمال لا يصحبها ثناء. يرد الإنسان مالًا لا يراقبه فيه أحد، أو يكف نفسه عن حرام تمكن منه، أو يقوم بحق أهله في وقت يشق عليه. وقد يظن أنها صغيرة لأنها لا تصنع له حضورًا بين الناس. ثم تأتي ساعة يحتاج فيها قلبه إلى أن يعرف أن الله لا ينسى صدق عبده، وأن الإخلاص ليس ضياعًا في الخفاء.

ورد في الصحيح خبر ثلاثة آواهم المبيت إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فتوجهوا إلى الله بما علموا من أعمال أخلصوا فيها له. يقدم الخبر صورة للرجاء متصلة بالعمل، وفي تفاصيل كل واحد منهم ما يمنع أن نحوله إلى حيلة نكرر ألفاظها دون فهم معناها.

أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت

عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا، فنأى بي في طلب شىء يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج ".

قال النبي ﷺ " وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلى، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه. فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي ﷺ وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلى أجري. فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي. فقلت إني لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون ".[١٩]

لم تكن الصخرة هي بداية العبادة

وقعت الأعمال قبل الضيق الذي قصه الخبر. لم يخترع أصحابها ماضيهم حين احتاجوا إليه، ولم يكن فعلهم مجرد ترتيب للحصول على منفعة حاضرة. وهذا يوقظ إلى قيمة العبادة في أيام السعة: أن تؤدي الحق لأن الله يحبه، لا لأنك تعرف الأزمة التي سيدفعها عنك، وأن تحفظ الأمانة دون اشتراط مشهد يأتي فيه الناس فيرون أثرها.

---

١٩ البخاري، الصحيح، كتاب الإجارة، حديث ٢٢٧٢، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

في بعض الخطاب الشائع تتحول الطاعة إلى صفقة مفصلة: افعل هذا القدر لتحصل على ذلك الرزق، وكرر هذه العبارة لتفوز بتلك العلاقة. أما الخبر فثبت فيه توسل إلى الله بعمل صالح وقعت به النجاة في تلك الحال. لا يخولنا ذلك أن نعين لكل قارئ موعدًا لانفراج مصيبته أو صورة للخلف الذي يرجوه. نثبت ما وقع، ونتعلم الدعاء المشروع، ولا ننتحل علمًا بمقادير الناس.

وفي قولهم إن كان العمل لوجه الله افتقار وطلب قبول. لم يحملوا سيرتهم على الله حمل المستغني الذي يرى أن عطاؤه قد أوجب له كل مطلوب. هم عباده، والعمل من توفيقه، والفرج من فضله. حين تتذكر خيرًا أعانك الله عليه، فلا تحتقره لأنك تعلم نقصك، ولا تزك نفسك به كأنك قد أمنت على جميع قصدك وعملك. احمده واسأله القبول، واستعن بما ثبت من أنواع الدعاء دون تكلف دعوى لا تعلمها.

حق الوالدين دون إلغاء سائر الحقوق

يحكي الرجل الأول عنايته بوالديه في موقف بعينه. وللموقف ظروفه التي ذكرها، ولا يتحول وصفه إلى أمر لكل إنسان بأن يمنع صغاره طعامًا يحتاجونه حتى يكرر الصورة نفسها.

الاقتداء يحتاج إلى فهم الحق والسياق، وأحكام النفقة والرعاية لا تستخرج من تفصيل واحد مع إهمال ما سواه من الأدلة. المعنى الظاهر هو تعظيمه حق والديه وإيثاره خدمتهما في عمل احتسبه عند الله.

قد تتمثل عنايتك بوالديك في دواء تحضره، أو اتصال تصدق فيه، أو حاجة تقضيها، أو احتمال مشقة مباحة في خدمتهما. وتحتاج أن تحفظ كذلك حقوق زوجك وأولادك ومن تعول. إذا تعارضت حقوق أو التبست حدود الطاعة، فالسؤال العلمي أولى من تحويل البر إلى منافسة في الإنهاك. لا يكلفك هذا الكتاب أن تتقمص حياة رجل في خبر، بل أن تفهم المعنى وتؤديه في حدود التكليف والاستطاعة.

والخدمة التي لا يراها الناس جديرة بأن تصان من المن. ربما تعبت ولم تسمع شكرًا، وربما لم يقدر الآخرون مقدار ما بذلت. لك أن تطلب تقسيم المسؤوليات بإنصاف، لكن لا تجعل غياب الثناء يمحو قيمة الحق الذي أديته. جمع الرجاء بالمسؤولية يعينك على أن تتكلم بصدق عن حاجتك إلى العون، من غير أن تجعل كل من أحسنت إليه مدينًا لمدحك الدائم.

حين تكون القدرة موضع الاختبار

كان صاحب الموقف الثاني قادرًا على معصية يرغب فيها. ثم وقف عند التذكير بالله. لا يسوغ إيراد تفاصيل الخبر أن يتحول إلى وصف مثير، ولا أن ننسى ما فيه من استغلال الحاجة قبل الرجوع. العبرة في ترك الحرام خوفًا من الله، وفي أنه كف مع قيام الرغبة والقدرة، لا في تجميل الأسباب التي قادته إليه.

حين تستطيع أن تضغط على ضعيف أو تستغل حاجته، لا يجعل رضاه الظاهر كل ما تفعله عدلًا. قد يوافق الإنسان تحت ثقل الحاجة على ما لا يرضاه لولا اضطراره. لذلك يحتاج صاحب المال والسلطة والخبرة إلى محاسبة أشد في طريق استعمال قدرته. حسن الظن بالله لا يبرر أخذ منفعة محرمة ثم انتظار المغفرة مع الإصرار؛ يحمل على الكف والرجوع، وعلى إصلاح ما ترتب من حق بحسب حكمه.

وقد تقع لحظة الرجوع متأخرة في المشهد، لكنها ليست بلا قيمة. لا تقل لنفسك إنك ما دمت قد اقتربت فقد فات إمكان الوقوف. كلما تبين لك محرم فدعْه، ولا تجعل الاستحياء من تغيير القرار سببًا لإكماله. والمال الذي أنفقته، والكلام الذي قلته، والصورة التي رسمتها أمام غيرك، لا يحول شيء منها

المعصية إلى واجب الإتمام. باب الرجوع لا ينتظر منك قصة بلا أخطاء قبل أن تدخله.

أمانة لا تبتلعها المصلحة

في الموقف الثالث حق لأجير غاب، ثم عاد يطلبه. لم يجز لصاحب العمل أن يمحو أصل الحق من ذاكرته لأنه لم يطلب مدة، ولم يجعل جهده في تنمية المال ذريعة إلى إنكار ما فعله له. هذه أمانة وقع لها في الخبر وصف مخصوص. أما مسائل استثمار مال الغير والربح المتولد عنه والإذن فيه فلها أحكامها التفصيلية، ولا يستخرج من الواقعة إذن عام بالتصرف في مال كل غائب دون علمه.

المعنى الذي يحتاج إليه القارئ هو أن غياب المطالبة لا يجعل الحق ملكًا لك. قد يكون عندك متاع مستعار، أو مستحق لموظف، أو مبلغ أخطأ صاحبه في حسابه. إذا عرفت الحق، فابحث عن طريق أدائه، واستفت فيما التبس. لا تنتظر أن يغلق عليك باب حتى تبدأ السؤال، ولا تجعل دعاءك بفتح الأبواب منفصلًا عن باب أمانة تعلم أنك أغلقته دون صاحبها.

ويرجح في بعض النفوس صوت يقول: لن يعرف أحد. المؤمن يعرف أن ذلك لا يصف الحقيقة كلها؛ الله يعلم. وهذه المعرفة

لا يراد بها أن يعيش في تفتيش لا ينتهي عن حقوق محتملة، بل أن يصدق فيما يعلمه. الفرق كبير بين حق ظاهر يحتاج إلى أداء وخيال متكرر يختلق تبعة لا دليل عليها. الأول تعالجه، والثاني لا تحول كل احتمالاته إلى ديون جديدة على نفسك.

الفرج الذي جاء في الخبر والفرج الذي ترجوه

تحركت الصخرة في الخبر حتى خرجوا. نصدق ذلك كما جاء، ونرى فضل الله في إجابة دعائهم. لكن لا يقال لمن دعا بعمل صالح ولم ينكشف عنه الضر بالصورة نفسها إن عمله كان رياء بالضرورة، أو إن الله لم يقبل منه شيئًا. نحن لم نخبر بحقيقة عمله ولا بوجه تدبير أمره. الوعود والأخبار تؤخذ في حدود ألفاظها، ولا تجعل أداة اتهام لمن طال انتظاره.

ثم إن الرجاء لا ينحصر في تذكر أعمال ماضية. قد تجد أن أكثر ما تذكره تقصير، فيظل لك سؤال الله بفضله وأسمائه الحسنى، والتوبة إليه، والعمل الصالح الذي تستطيع أن تبدأه. لا يشترط الدخول في باب الدعاء أن تحمل سجلًا تراه عظيمًا. وحين يوفقك إلى خير فاحفظه من الرياء والمن،

وامض إلى الخير الذي بعده، ولا تنشغل عن حاضر التكليف بتصنيف منزلة نفسك.

تترك القصة في القلب سؤالًا عمليًا هادئًا: أي أمانة سأحفظ اليوم ولو لم يرني أحد؟ ليس لتتخذ العمل ضمانًا لنتيجة دنيوية، بل لتعبد الله بصدق فيما بين يديك. قد لا تعرف أثر هذا العمل كله في حياتك، ولا يلزم أن تعرفه كي يكون له معنى. يكفيك أن الله يعلم، وأنه دعاك إلى الإحسان، وأنك ترجوه ولا تستغني عنه.

الفصل الثاني عشر

اليقين بالخبر وتقلب الشعور

يقول بعض الناس: أعلم أن الله رحيم، لكن قلبي لا يشعر بالراحة، فهل بطل يقيني؟ في هذا السؤال خلط يحتاج إلى رفق وبيان. تصديق الخبر حق، وما يعرض للقلب من حزن وخوف وتعب أمر آخر يحتاج إلى فهم أسبابه وحدوده. قد يصدق الإنسان وعد الله وهو يبكي، وقد يدعو وهو يخشى ما ينتظره، وقد يكون أشد افتقارًا حين لا يجد الكلمات التي اعتاد أن يصف بها طمأنينته.

لا يراد بهذا فصل الإيمان عن القلب أو نفي أثر المعرفة فيه؛ فالإيمان يزيد وينقص، وله أثره في المحبة والخشية والرجاء والعمل. إنما يراد منع اختزال حال القلب كلها في إحساس واحد يُطلب حضوره عند كل اختبار. من عرف من نفسه تقصيرًا أصلحه، ومن عرض له انفعال غير اختياري لم يحوله وحده إلى شهادة على أصل اعتقاده. يرجع إلى المعاني التي يصدقها وإلى العمل الذي يختاره، ويتعلم ما أشكل عليه.

ماذا يعني أن تكون موقنًا بما تقول

في سيد الاستغفار إقرار بالله ربًا، وإقرار بالعبودية، واعتراف بالنعمة والذنب، وسؤال المغفرة. سبق نصه في المجلد الأول، وموضعه هنا أن الصدق في هذه المعاني ليس مسابقة في قوة الانفعال. تستطيع أن تفهم ما تقوله وتصدق به وتقصده، ولو لم تقارن دمعتك بدمعة الأمس. والوعد المتصل بالدعاء يُتلقى كما ثبت، من غير أن نخترع له اختبارًا شعوريًا لم يرد فيه.[٢٠]

قد يقف قارئ طويلًا عند سؤال: هل كنت متيقنًا بما يكفي؟ ثم يعيد الدعاء ليحصل على إحساس يطمئنه، ثم يشك في الإحساس نفسه. لا يحتاج النص إلى هذا السلم الذي لا نهاية له. يتعلم المرء المعنى، ويصدق الخبر، ويدعو ربه، ويجتنب الأسباب التي يعرف فسادها. وإذا غلب عليه تكرار قهري يعطل عبادته أو حياته، فليس توسيع قائمة الاختبارات الذاتية جوابًا نافعًا له؛ يطلب البيان والعون المناسبين لحاله.

ومعرفة حدود نفسك لا تعني سوء الظن بالله. تقول: لا أعلم هل استوفيت كل أسباب القبول، مع تصديقك بأن الله لا

---

٢٠ البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، حديث ٦٣٠٦، عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

يخلف وعده، ثم تجتهد في الإخلاص والمتابعة وتسأل القبول. أما أن تقول: مهما تبت وعملت فلن يقبلني، فهذا حكم زائد لا تملك عليه دليلًا. فالافتقار يحملك إلى السؤال، والقنوط يقطع السؤال؛ وبينهما فرق يظهر في الطريق الذي يسلكه القلب بعد العبارة.

حين تتزاحم المعارف والمخاوف

قد تسمع خبرًا يقلقك فيتقدم الخوف إلى ذهنك قبل كل معنى آخر. لا يلزم من سرعة حضوره أنك اخترت إنكار الحق. امنح نفسك فرصة لفهم الخبر، وارجع إلى ما تعلمه من علم الله ورحمته، ولا تتكلف إنكار الواقعة. إذا كان الخبر ضررًا صحيحًا فتعامَل معه على أنه ضرر يحتاج إلى سبب وصبر، وإذا كان احتمالًا فتثبت قبل البناء عليه. تصحيح الفهم يختلف عن تكرار جملة جميلة فوق واقع لم تنظر فيه.

يمكن أن يجتمع في الجملة الصادقة خوف ورجاء: أخاف أن يصعب هذا الأمر، وأسأل الله أن يعينني فيه. لا تحتاج أن تحذف الخوف من لسانك كي يصح رجاؤك، ولا أن تجعل الرجاء ادعاء علم بعاقبة مضمونة. ومن يحسن مواساتك

يعينك على هذا الصدق، فلا يطالبك بإظهار اطمئنان لا تملكه، ولا يطلق على كل خوف اسم سوء الظن.

وفي العمل كذلك قد تتردد لأن المعلومات ناقصة. تردد القرار ليس دائمًا تردد الاعتقاد. من لا يعرف أي مسارين أصلح له يجوز أن يحتاج إلى سؤال ومشورة، مع يقينه بعلم الله ووجوب طاعته. إن تعجلنا وصف كل حيرة بأنها خلل إيماني منعنا الناس من التعلم، وربما دفعناهم إلى قرارات متسرعة ليبرهنوا أنهم واثقون. العلم يزيد القرار بيانًا، والتوكل يحمل القلب عند انتهاء ما يمكنه من النظر.

الإيمان لا يحتاج إلى عرض يومي أمام الناس

قد يظن الإنسان أنه مطالب بإعلان ثباته في كل محادثة، فيجيب عن سؤال حاله بما يرضي صورة متوقعة منه، ثم يبقى وحده مع تعبه. ليس من صدق الرجاء أن تمثل دور من لا يتعب. تستطيع أن تقول لمن ائتمنته إنك تحتاج إلى عون، وأن تحفظ في الوقت نفسه أدبك مع الله. لا يلزمك أن تخبر كل أحد، كما لا يلزمك أن تحمل ما يفوق طاقتك خشية أن يقال إنك ضعفت.

ومن جهة السامع، لا تجعل الثناء على ثبات المبتلى قيدًا يمنعه من طلب المساعدة. قد يسمع منك أنه أقوى الجميع فيخجل أن يخبرك بأنه لم يعد قادرًا على حمل بعض مسؤولياته. الأرفق أن تحفظ له مساحة الصدق، وأن تعرض عونًا واضحًا تستطيع الوفاء به. محبة الخير له تتصل بما يحتاج إليه بالفعل، لا بالصورة التي ترتاح أنت إلى رؤيته عليها.

إذا انتهيت من هذا الباب، فلا تستخرج لنفسك درجة يقين. انظر إلى أصل تعرفه فتتمسك به، وإلى حكم تجهله فتسأل عنه، وإلى عمل صالح تستطيع أداءه، وإلى عون تحتاج إليه. قد يكون في هذه الخطوات الهادئة صدق أكبر من ساعات تمضيها في قياس ما لا تحيط به من باطنك. والله أعلم بمن اتقى، وإليه ترجع وتسأله الهدى والثبات.

الفصل الثالث عشر

لا تجعل الطاعة شرطًا تمليه على العطاء

يدخل بعض الناس في عمل صالح وهم يرجون معه حاجة دنيوية مباحة. لا يلزم أن تكون حاجتهم عيبًا؛ يسألون الله العافية والرزق وصلاح الأهل، ويرجون بركة ما يعملون. لكن القلب قد ينقل الرجاء بهدوء إلى اشتراط: ما دمت قد صليت ودعوت وأحسنت، فيجب أن يقع اختياري كما رسمته. وعندئذ يصير التأخر سببًا للخصومة، وتتحول العبادة من عبودية إلى مطالبة بعقد لم ينعقد.

الفرق الدقيق هنا أن تسأل الله من فضله، وأن تتعامل مع فعلك كأنه جعل لك سلطانًا على صورة قضائه. هو الذي وفقك إلى الطاعة أصلًا، وهو الغني عنك، وأنت محتاج إليه في بدايتها وصحتها وقبولها. وعندك نصوص في الثواب والفضل تؤمن بها على وجهها، لكنك لا تضيف إليها من عندك اسم الوظيفة أو موعد الزواج أو عدد الأيام حتى يزول المرض. هذه التفاصيل ليست مستفادة من مجرد صدق رجائك.

حين تكون النتيجة هي التي تعرّف العبادة

تخيل قارئًا تصدق ثم انتظر زيادة محددة في حسابه خلال شهر. فلما لم يرها ندم على صدقته. المسألة لا تعالج بوعد آخر أن المال سيأتي في الشهر التالي؛ فهذا يعيد الخطأ نفسه. يحتاج أن يتعلم لماذا تصدق، وما الذي ثبت في فضل الصدقة، وما الذي أضافه هو من صورة خاصة للعوض. يطلب من الله البركة والخلف، ويحفظ معنى العبادة من أن يربطه بدفتر تجاري يسجل فيه على ربه مواعيد الأداء.

ومثله من دعا لإصلاح علاقة، ثم أراد أن يجعل الآخر ملزمًا بالعودة لأنه دعا بصدق. دعاؤه عبادة، وللآخر حقوق واختيار، وللواقعة أسباب قد لا يعرفها الداعي كلها. يجوز أن يسأل الخير والإصلاح المشروع، لكنه لا يستدل بدعائه على حق في ملاحقة الناس أو الضغط عليهم أو اتهامهم إن لم تقع رغبته. حسن الظن بالله لا ينسخ الأحكام التي تضبط تعامله معهم.

وقد يظهر الخلط في التعليم: يجتهد طالب ثم يرى نتيجة أقل مما توقع، فيحسب أن عبادته لم تنفعه. يمكنه مراجعة طريقة الدراسة والتقويم والظروف المؤثرة، وأن يطلب إنصافًا إذا ثبت خلل، وأن يحزن على ما فاته. أما أن يجعل علامة الامتحان معيارًا جامعًا لقربه من الله فزيادة لا يدل

عليها الواقع. قد ينجح آخر مع تقصير، وقد يتعثر صالح مع بذل، ولا يستقل الامتحان بالكشف عن حقيقة أحدهما عند ربه.

هذه الأمثلة ليست دعوة إلى إلغاء الأسباب أو إنكار آثار الطاعة. إنما تحفظ حدود الخبر. إذا ثبت سبب وفضل بنص آمنا به، وإذا عرف أثر بطريق صحيح وصفناه بقدره، وإذا جهلنا تفاصيل العاقبة لم نخترعها. القلب أحوج إلى هذا الصدق من حاجته إلى ضمان سريع يهدئه ساعة ثم يتركه أشد اضطرابًا عند أول مخالفة.

حق العبد الذي أخبر به الله

قد يرد في النص حق جعله الله لعباده تفضلًا منه، فنثبته كما أخبر ولا ننفيه بحجة أن الله لا يجب عليه شيء بإيجاب الخلق. مصدر اليقين هنا خبره الصادق، لا أن العبد صار مستغنيًا أو مستحقًا بعمله استقلالًا. ومن هذا الباب وعوده للمؤمنين والمحسنين والتائبين؛ يصدقها العبد، ويجتهد في تحقق أوصافها، ويسأل الله أن يكون من أهلها.

ويمنع هذا التفصيل خطأين. أحدهما أن نخاف من الاغترار حتى نفرغ الوعود من معناها، فيسمع التائب كلامًا يوهم أن

رجوعه لا أمل فيه. والثاني أن نوسع الوعد حتى نحمل عليه كل غرض دنيوي نختاره. الشرع أعدل من الطرفين: يبشر ويحذر، ويأمر بالعمل، ويجعل للعبد رجاء قائمًا على علم، لا على أمن كاذب ولا على يأس متكلف.

وإذا قلت إنك ترجو الأجر، فلا تلزم نفسك أن تشعر به الآن شعور من قبض شيئًا في يده. للثواب زمنه الذي أخبر به الله، وللآخرة شأن لا يختصر في منفعة عاجلة. بعض الضيق يأتي من أن القلب لا يعد الخير خيرًا إلا إذا ظهر في يومه. تعلّم أن يكون للخبر عن الآخرة وزنه، وأن تظل الحياة مجال عمل يرجى أثره وإن لم ير صاحبه كل ثمرته هنا.

عندما تراجع غرضك من العمل

قد تكتشف أن غرضًا دنيويًا غلب عليك. لا تجعل اكتشافه دعوة إلى ترك الخير، بل إلى تصحيح القصد وتعلم ما يلزم في شأن عملك. من كان يبالغ في إظهار الصدقة ليحسن الناس معاملته، يستطيع أن يصون خصوصيتها، وأن يجاهد نفسه في طلب وجه الله. ومن جعل العلم طريقًا للظهور، يمكنه أن يعود إلى نفع نفسه ومن يحتاج إليه، وأن يتعلم قبل أن يتصدر. التفصيل في أثر المقاصد على صحة الأعمال

يرجع فيه إلى أهل العلم، ولا يصدر الكتاب حكمًا واحدًا على كل صورة.

والنية ليست جملة تقولها مرة فتحتمي بها من كل مراجعة. يظهر أثرها في اختيار الطريق وقبول النقد وحفظ الحقوق. لكن مراقبتها كذلك ليست مطاردة لكل خاطر حتى يتوقف العمل. إذا بان لك قصد فاسد تدفعه، فادفعه؛ وإذا عرض خاطر تكرهه فلا تجعل مجرد مروره حكمًا بأن كل ما فعلت قد فسد. اجمع بين الصدق والاقتصاد في النظر، واسأل حين يقع إشكال حقيقي.

وفي نهاية العمل قل الحمد لله على توفيقه، واسأله القبول والبركة. لك أن تسأله حاجتك المعينة، ولك أن تحزن إذا فاتتك، لكن لا تهدم أصل العبودية لأنها لم تأت على موعد اخترته. في هذا الموضع ينضج الرجاء: يبقى تعلقك بالله أوسع من تعلقك بصورة واحدة للعطاء، وتظل قادرًا على أداء حق اليوم حتى حين لا تعرف جواب أسئلة الغد.

الفصل الرابع عشر

من معرفة الحكم إلى أمانة الاختيار

لا يستغني حسن الظن بالله عن العلم بما يحبه الله. قد تكون رغبة الإنسان في الخير صادقة، ثم يخطئ الطريق لأنه لا يعرف حكمًا يحتاج إليه، أو لأنه أخذ جوابًا لمسألة غير مسألته. ومن الرحمة بالنفس أن تتعلم قبل أن تبني على حماستها، وأن تعرف حدود قدرتك على الفهم، وأن تسأل السؤال الذي يصف واقعك بصدق.

في أمور المعاش يجتهد الناس في معرفة التفاصيل قبل شراء شيء ثمين. يسألون عن الجودة والعيوب والالتزامات، ولا يرون السؤال عيبًا في ثقتهم. وأمور الدين أولى بعناية لا تتحول إلى تكلف: تعرف أصل العبادة وكيف تؤديها، وتسأل عن المعاملة التي ستدخل فيها، وتبين الحق المتنازع عليه قبل أن تحسمه بما ترتاح إليه. الرجاء يصحب طلب الهدى، ولا يقوم مقام البيان الذي يمكن طلبه.

السؤال الذي يحمل جوابه في صياغته

قد يعرض السائل واقعة بطريقة تخفي الجزء الذي يخشى أن يغير الحكم. يذكر حاجته ولا يذكر حق غيره، أو يصف الضرر بما يضخمه، أو يسمي الأمر بلفظ يوحي أنه محسوم. لا ينتفع بمجرد حصوله على جواب مريح إذا كان الجواب مبنيًا على صورة ناقصة صنعها هو. حسن الظن بالله يعينه على أن يقبل البيان ولو خالف هواه، لأنه يرجو الخير في طاعته لا في الحصول على توقيع يوافق رغبته.

ولا يلزم من الصدق أن يذكر تفاصيل محرجة لا أثر لها. يخبر بما يحتاجه فهم المسألة، ويحفظ الأسماء والأسرار حيث لا حاجة إليها، ويسأل عما لا يعرف كيف يعرضه. صاحب العلم المؤهل يبين له ما يحتاج إلى استيضاح، ولا يحل الفضول محل الفتوى. والمقصود أن تكون الصورة كافية وصادقة، فلا يزيد فيها لتشديد الحكم على غيره، ولا ينقص منها لتخفيفه عن نفسه.

وقد تكون المسألة مشتركة بين حكم شرعي وواقع مهني. فيسأل أهل الاختصاص عن حقيقة المعاملة أو الضرر أو البدائل، ثم يعرض تلك الحقيقة على من يبين حكمها. ليست معرفة الحكم بديلًا عن فهم ما سيفعله فعلًا، كما أن الخبرة

المهنية ليست صلاحية مستقلة لتحليل الحرام. كل علم يؤدي وظيفته، ويحتاج السائل إلى أن يربط الجوابين دون أن ينسب إلى أحد ما لم يقله.

حين تختلف عليك الأجوبة

لا تعالج اختلاف الأجوبة بجمع العدد الأكبر منها حتى تجد الأسهل، ولا بإعلان أن العلم كله متناقض. قد يكون الاختلاف في تصوير الواقعة أو في دليلها أو في اجتهاد معتبر. اسأل عما لم تفهمه، وارجع إلى من تثق بعلمه ودينه وقدرته على تصور المسألة، وبيّن له أنك سمعت جوابًا آخر وما الذي أشكل عليك فيه. لا تحتاج أن تتحول إلى متخصص في كل باب لتنتفع بالعلم، لكن تحتاج إلى أمانة في الطلب.

وفي مسائل يعرف الإنسان حكمها بدليل واضح لا يكون الانتقال بين الأجوبة وسيلة لتأجيل العمل. قد يتكرر السؤال لا لزيادة الفهم بل للهروب من تبعة القرار. هنا يفيد أن يحدد ما بقي من إشكال حقيقي؛ فإن لم يبق إلا كراهة النفس لما يلزم، فالمطلوب إعانة على الامتثال، لا نسخة جديدة من المسألة تغير أسماءها حتى تعطي جوابًا آخر.

أما من يغلب عليه الوسواس فيحتاج إلى طريقة تعامل تناسبه يبينها له أهل العلم والاختصاص. لا يصح أن نزيده تكليفًا بإعادة السؤال عن كل احتمال. يستوضح الحكم الكافي لحاله، ويعمل به، ولا يجعل كتابًا عامًا مصدر أوامر تفصيلية تعيد فتح ما اتضح له. حسن الظن بالله لا يطلب منه أن يملك يقينًا حسيًا مستحيلًا في كل فعل عادي.

أن تعمل بما بان لك

للعلم أثر يظهر حين يغير تصرفًا. قد تتبين أن عبارة كنت تكررها تتضمن وعدًا لا أصل له، فتدعها. وقد تعرف أن حقًا عليك لا يسقط بحسن نيتك، فتسعى في أدائه. وقد تعلم أن بابًا مباحًا كنت تمنعه على نفسك تشددًا، فتنتفع به على وجهه. هذه صور مختلفة للهداية؛ ليست دائمًا إضافة تكليف، فقد تكون إزالة تكليف اخترعته أو تصحيح فهم حملك على قسوة لا موجب لها.

ومن حسن الأدب مع العلم أن تميز بين ما فهمته وما لم تفهمه. لا تنقل جوابًا مختصرًا إلى عشر وقائع تختلف عنه، ولا تجعل تجربتك مع فتوى خبرة تؤهلك للحكم على الناس. تستطيع أن تدلهم على المصدر، وأن تنقل ما علمته بحدوده،

وأن تقول لا أعلم فيما لا تعلم. هذه الكلمة تحفظ حق السائل وحق العلم، وليست نقصًا في نصرتك للدين.

ثم لا تجعل تعثر الامتثال سببًا للاعتراض على البيان. قد يعرف الإنسان الواجب ويحتاج إلى وقت لتنظيم أدائه أو إلى عون يعينه على قطع عادة، بحسب طبيعة التكليف وحكمه. يعترف بما عليه، ويطلب أسباب القدرة، ولا يغير اسم الحرام لأنه لم يستطع مفارقته بسهولة. بقاء معيار الحق واضحًا يحفظ له طريق الرجوع كلما ضعف، بينما تضيع البداية إذا بدل المعيار ليتوافق مع عجزه.

الرجاء الذي يعرف صاحبه حكم فعله أقدر على الثبات من رجاء يتغذى على عبارات واسعة. إنه لا يطالبه بأن يحل كل مسألة وحده، بل بأن يصدق في التعلم والعمل. وكلما ازداد علمًا ازداد افتقارًا؛ يرى ما يحتاج إلى إصلاحه، ويرى مع ذلك سعة ما فتحه الله لعباده من أبواب الخير.

الفصل الخامس عشر

بعد الخطأ كيف تتعلم دون أن تعترض

ينتهي بعض القرارات إلى خسارة، فتتعلق النفس بكلمة لو. ولو فعلت كذا لما حدث كذا، ولو لم أقل تلك العبارة لما انقطع ما بيننا، ولو اخترت الطريق الآخر لكنت اليوم أسعد. بعض هذا النظر يطلب سببًا يتعلم منه، وبعضه يبني عالمًا بديلًا يضمن فيه كل شيء ثم يقارن به الحياة التي وقعت. الأول قد ينفع، والثاني لا يملك العلم الذي يدعيه.

مر في حديث المؤمن القوي النهي عن قول لو في موضع الاعتراض وفتح عمل الشيطان، مع الأمر بالحرص على النافع قبل الوقوع. فلا يفهم النهي على أنه منع لكل تقدير سابق أو مراجعة لاحقة. وقد بين الشرح التفصيل في استعمال اللفظ بحسب المعنى والمقصد. الذي تحتاج إلى تصحيحه هو اعتراض لا يقر بالقدر، أو دوران يزعم أن طريقًا لم تسلكه كان مضمون النتائج.[٢١]

---

٢١ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، شرح حديث ٢٦٦٤.

الدرس الذي يمكن صياغته

تخيل أن شخصًا أخطأ في تسليم عمل لأنه لم يراجع موعده. يستطيع أن يقول إن عدم تثبيت الموعد أوقعه في ارتباك، وإنه سيستعمل وسيلة أوضح في المرات القادمة. هذه مراجعة لسبب ظاهر، ويمكن أن تنتهي إلى فعل. أما قوله إن حياته كلها فسدت وإن كل ما كان ينتظره ضاع إلى الأبد فلا يثبته الخطأ المحدد. كلما كبر الحكم عن بينته صار أصعب على صاحبه أن يجد ما يصلحه.

وقد يراجع السبب ثم يتبين أن ما حدث لم يكن في قدرته. أخبر بالمعلومة الصحيحة، وأدى ما عليه، ثم تغير أمر لم يكن يعلم به. هنا لا يخترع ذنبًا ليحصل على شعور زائف بأنه كان يملك منع كل شيء. الاعتراف بحدود القدرة جزء من الصدق. يمكنك أن تتعلم من حدث لم تكن مذنبًا فيه، من غير أن تحول التعلم إلى اعتراف بتبعة ليست عليك.

وفي العلاقات يصعب هذا الفرق لأن النتائج يشترك فيها أكثر من شخص. تستطيع مراجعة عبارتك وتوقيتك وطريقتك، لكنك لا تملك أن تقرر أن رد الطرف الآخر كان سيختلف حتمًا لو اخترت لفظًا آخر. ربما كان يمكن أن يتحسن، وربما كان

سبب الخلاف أوسع. تحمل مسؤوليتك بقدرها، ولا تحمل نفسك علمًا بسلوك لم يقع ولا بقلوب لم تطلع عليها.

إصلاح الخطأ لا يحتاج إلى إهانة الذات

من العبارات التي تغلق باب التعلم أن يقول المرء عن نفسه إنه لا يحسن شيئًا. هي تبدو اعترافًا متواضعًا، لكنها تعفيه أحيانًا من وصف الخطأ وصفًا محددًا يمكن علاجه. ما الذي لم تحسنه؟ هل أخطأت في معلومة أم في مهارة أم في تقدير الوقت أم في أداء حق؟ عندما يسمي الأمر يستطيع أن يسأل ويتدرب ويعتذر، أما الوصف الشامل فلا يترك أمامه إلا الحزن على نفسه.

ولا يعني ترك الإهانة تهوين الذنب. يمكنك أن تكون واضحًا في خطئك دون أن تدعي أن حياتك كلها لا قيمة لها. تقول إن هذا الفعل محرم وتتوب منه، أو إن هذه المهارة ناقصة وتتعلمها، أو إن هذا الحق ضاع وتسعى إلى رده. لكل موضع علاجه، ولا يصح علاجها جميعًا بمزيد من الكلام القاسي مع النفس. القسوة ليست برهانًا على الصدق، كما أن التخفيف ليس دائمًا رحمة إن كان يستر حقًا يجب أداؤه.

ومن يعينك على المراجعة ينبغي أن يعرف غرضها. ليست جلسة لإخراج اعترافات أكثر، ولا لإعادة تفاصيل مؤلمة لا حاجة إليها، بل لفهم ما يلزم الآن. إذا ظهرت مسألة تتعلق بحقوق أو خطر أو حال نفسية تعطل الحياة، فاطلب العون المناسب من أهله. الكتاب يفتح طريقة نظر، ولا يحل محل الخبرة التي تحتاجها واقعة بعينها.

ما بقي خارج يدك

قد تصلح ما تستطيع ولا تعود الأشياء كما كانت. تعتذر ولا تُقبل عودتك، أو تؤدي مالًا ويبقى في نفس صاحبه ألم، أو تتعلم بعد أن فات موعد لا يتكرر. حسن الظن بالله يعينك على احتمال هذا الباقي دون أن تستخرج منه حكمًا برد توبتك أو بفساد كل سعيك. نتائج الناس لها أسبابها وحدودها، والقبول عند الله ليس خبرًا يقرره رد شخص عليك.

ولا يحمل الرجاء على استعجال المتضرر. من حقه أن يطلب ما له، وقد يحتاج إلى ألا يعود إلى العلاقة السابقة. لا تجعل إصلاحك سببًا لمطالبة جديدة له بأن يطمئنك فورًا. افعل ما يلزمك، واستفت في الحقوق التي أشكلت، واترك ما لا تملكه

من مشاعره وقراره. بذلك يكون الاعتذار أصدق؛ غرضه تحمل المسؤولية، لا نقل عبء راحتك إلى من تأذى منك.

ثم عد إلى يومك. ليست العودة نسيانًا متعمدًا للدرس، بل وضع له في مكانه. تحفظ قاعدة تعلمتها، وتؤدي واجبًا حاضرًا، وترجو الله فيما سيأتي. الماضي الذي لا تستطيع تغييره لا يصبح إلهًا صغيرًا يقضي على كل مستقبل؛ هو جزء من حياتك، والله رب حياتك كلها، وإليه تتوب ومنه تسأل العون.

الفصل السادس عشر

رجاء يحفظ حقوق من معك

يمكن للإنسان أن يتحدث عن التوكل طويلًا ثم يترك غيره يدفع ثمن قراراته. يبدأ مشروعًا غامضًا بأموال أؤتمن عليها، أو يعد أسرته بما لم يتحقق منه، أو يتطوع بوقت يلزمه لأداء حق واجب، ثم يطلب من الجميع أن يثقوا بأن الأمور ستنتهي بخير. حسن الظن بالله لا يصحح هذا الخلط. من صدق العبودية حفظ الأمانات والسؤال عن حدود التصرف قبل المضي فيه.

لك أن تأمل نجاحًا، لكن ليس لك أن تسمي الأمل معلومة حين تعرضه على من سيتأثر بقرارك. إذا كان في الأمر احتمال خسارة فبينه بقدر ما تعلم. وإذا لم تملك صلاحية التصرف فلا تستخرجها من حماستك. وإذا كان لغيرك حق الموافقة أو الامتناع فلا تجعل رفضه نقصًا في إيمانه. الحقوق لا تذوب أمام النوايا الطيبة، والبيان الصادق من الأسباب التي تحفظها.

الشجاعة والأمانة يجتمعان

قد يظن متحمس أن الاعتراف بالمخاطر يضعف العزيمة. والحقيقة أن القرار الذي بني على صورة مزينة قد ينهار عند أول مفاجأة، ويترك معه مرارة الخداع. تستطيع أن تعزم وأنت صادق في حدود معرفتك: هذا ما نعلمه، وهذا ما لم يتضح، وهذه القدرة المتاحة، وهذا ما نحتاج إلى سؤاله. لا يلزم من ذلك الجبن أو سوء الظن؛ إنه أداء للأمانة في الكلام قبل الأمانة في الفعل.

ومع الأسرة قد يكون الوضوح أشد حاجة. لا تعد طفلًا بعودة غائب في موعد لا تعلمه لكي يتوقف عن البكاء، ولا تعد مريضًا بشفاء محدد ليثق بك، ولا تَعِد من يحتاج إلى مال بأن الأمر محسوم قبل أن تملكه أو تتأكد من القدرة على بذله. تستطيع أن تعطي رجاء صادقًا: سأبذل ما أستطيع، وسنسأل من يعرف، وندعو الله بالخير. قد تكون العبارة أقل إثارة، لكنها أصلح لبناء ثقة تبقى حين تتغير الظروف.

ويحتاج من يسمع الوعد إلى التمييز كذلك. السؤال عن التفاصيل ليس دائمًا اتهامًا، وطلب توثيق الاتفاق لا يعني إنكار فضل الله، والاحتياط المشروع لا يناقض حسن الظن به. إنما تنظر في أسباب بشرية معرضة للنقص. ربك أمرك بالعدل

والأمانة؛ فلا تجعل أسماء عباداته وسيلة لإغلاق الأسئلة التي تحفظ حقوق عباده.

لا تستعمل الدين لحماية صورتك

إذا اعترض إنسان على تقصيرك فاسمع ما يتعلق بالفعل قبل أن تجعل الاعتراض خصومة مع مشروعك أو مع نيتك. قد يحب الخير الذي تقصده ويرى خللًا في التنفيذ. ومن أسهل ما يفسد النصيحة أن يرد صاحب العمل عليها بعبارات كبيرة تمنع النظر في الوقائع. أنت لست معصومًا لأنك تعمل في باب خير، ولا تصبح حقوق الناس أقل حرمة لأن المنفعة العامة في نظرك عظيمة.

وقد يصح نقد بعض كلام الناقد أيضًا. لكن الصدق يقتضي أن تفصل المسألتين؛ تصلح حقًا ضيعته، وتبين خطأً وقع فيه بقدر الحاجة. لا تجعل نقص الناقد عذرًا لإبقاء نقصك، ولا تجعل اعترافك بالخطأ إقرارًا بكل ما نسبه إليك. هذه العدالة في التفصيل تحفظ الرجاء من أن يتحول إلى دفاع عن النفس بأي ثمن.

وفي المؤسسات والمبادرات يتسع أثر الأمانة. لا تسجل عملًا لم ينفذ، ولا تنسب مراجعة إلى شخص لم يراجع، ولا تعرض

نتيجة متوقعة على أنها أثر مقاس. رجاء النفع لا يبرر اختلاق شواهد عليه. تستطيع أن تقول ما أنجز وما بقي، وأن تعرض ما تعلمته من التعثر، وأن تصلح الطريق. الثقة التي تبنى على البيان أقل لمعانًا في أولها، لكنها أصدق من نجاح لفظي لا يجد القارئ له حقيقة.

الرجاء المشترك لا يلغي اختلاف الناس

قد يعيش اثنان الحدث نفسه ويختلف تعبيرهما عنه. أحدهما يتكلم كثيرًا والآخر يصمت، أحدهما يبادر والآخر يحتاج إلى استيضاح. لا تقرأ هذا الاختلاف وحده على أنه تفاضل في صدق الرجاء. اسأل عن الواجب المشترك وكيف تؤدونه، واترك لكل واحد مساحة مباحة في التعبير. وإذا احتاج أحدكم إلى عون فلا تجعل طلبه سببًا لخروجه من جماعة الواثقين.

ومن الرحمة أن يكون التعاون قابلًا للتعديل. قد توافق على مسؤولية ثم تكتشف أنك لا تستطيع أداءها كما يلزم. إخبار من يعتمد عليك مبكرًا أصدق من الصمت حتى تضيع المصلحة. تطلب إعادة توزيعها أو عونًا عليها، وتتحمل ما

ترتب من حق، ولا تختبئ خلف وعد عام أن الأمور ستتيسر وحدها. التيسير يرجى، وأمانة التواصل تؤدى الآن.

وحين تحفظ حقوق من معك تكتسب كلماتك عن حسن الظن معناها العملي. يرون في رجائك صدقًا يطمئنون إلى التعامل معه، لا ضغطًا يمنعهم من السؤال. والله يحب من عباده الإحسان والعدل، وإصلاح العلاقة به لا ينفصل عن أداء ما أمر به في علاقتك بخلقه.

الفصل السابع عشر

لا تجعل الناس ميزان قبولك

يحتاج الإنسان إلى الناس في أشياء كثيرة؛ يتعلم منهم، ويتعاون معهم، ويحب أن يجد منهم عدلًا وإحسانًا. لكن رضاهم لا يصير بذلك خبرًا عن منزلة عمله عند الله. قد يمدحون ما لم يعرفوا خفاياه، وقد يذمون ما لم يفهموه، وقد يختلفون لأن حاجاتهم وأهواءهم متباينة. إن جعلت أصواتهم كلها محكمة لقلبك، فلن تستطيع أن تعرف متى تنتهي القضية.

وقد مر حديث النظر إلى القلوب والأعمال، وحديث النية. يردانك إلى ما عليك من إصلاح، ولا يمنحانك حق احتقار النقد أو الاستغناء عن نصيحة أمينة. الفرق بين أن تنتفع بما قيل في فعلك، وأن تجعل كل رأي حكمًا نهائيًا على قيمتك. الأول قد يصلح عملك، والثاني يحمل الناس ما لا يملكون، ثم يترك قلبك يتقلب مع ما يقولون.[٢٢]

---

٢٢ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٢٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المدح الذي يحتاج إلى أدب

إذا مدحك إنسان فاقبل إحسانه بأدب، واحمد الله على ما وفقك إليه، ولا تزعم أن شهادته كشفت لك قبول العمل. قد يكون قد رأى خيرًا حقيقيًا، فاحفظ الخير ولا تنسب لنفسك كمالًا لم تدعه شهادته أصلًا. وإذا كان في المدح خطأ مؤثر أو نسبة عمل لم تفعله، فصحح ما يحتاج إلى تصحيح. ليس التواضع أن تنكر كل معروف وقع منك، بل أن تصدق ولا تستكثر ولا تستغني عن فضل الله.

ويظهر الامتحان حين يدعوك المدح إلى تكرار ما يرضي الجمهور ولو على حساب الأمانة. قد يجد الكاتب أن العبارة المبالغ فيها تنتشر أكثر، فيزيد فيها. وقد يرى المعلم أن الوعد السريع يجذب السامعين، فيحذف القيود. وقد يعتاد صاحب المبادرة أن يعرض التوقعات على أنها نتائج لأن ذلك يجلب الدعم. هذه الطرق لا تصبح مشروعة لأن الغاية نافعة. الرجاء في بركة الصدق أولى من تعلق بمنفعة لا تستقيم إلا بتزييفه.

ومن الخير أن يبقى لك عمل لا تحتاج إلى عرضه، ما دام موضعه الخفاء ولا تضيع به مصلحة شرعية في الإعلان. لا يجعل الخفاء عملك مقبولًا تلقائيًا، كما لا يجعل الظهور رياء تلقائيًا؛ إنما يتعلق الأمر بالقصد والمشروعية والحقوق. حافظ

على ما يعينك على الإخلاص دون أن تحول الإخفاء نفسه إلى صورة تتفاخر بها.

النقد الذي يمكن الانتفاع به

قد يصلك النقد بعبارة قاسية وفيه حق. خذ الحق الذي تبين، ولا تجعل قسوة صاحبه عذرًا لإبقاء الخطأ. وقد يأتيك بعبارة لطيفة وفيه ظلم أو جهل؛ لا تقبله كله لمجرد لطفه. تحتاج إلى النظر في الدليل والواقعة، وإلى مشورة إذا غلب عليك الانفعال. فطريقة القول تؤثر في السماع، لكنها لا تستقل بتحديد صدقه.

وحين يصح النقد، فإن إصلاحك لا يوجب أن تعلن أنك كنت سيئًا في كل شيء. صف الموضع وعدله، ورد ما تعلق به من حق، وبيّن التصحيح لمن يحتاج إليه. هذا أصدق من دفاع طويل يهرب من الفعل، وأصدق من انهيار يكتفي بإدانة النفس ثم لا يصلح شيئًا. ترجُ الله في قبول الحق حتى حين جاء من طريق لم تحبه.

أما الاتهام الذي لا بينة عليه فلا يلزمك أن تستهلك حياتك في الرد على كل صورة منه. يختلف ما ينبغي بيانه باختلاف أثره وحق الناس فيه. قد تحتاج إلى جواب واضح مرة، أو إلى

إجراء يحفظ حقًا، أو إلى ترك جدال لا ينفع. استعن بمن يحسن تقدير الموقف عند الحاجة، ولا تجعل عدد من اقتنعوا بك هو الميزان الوحيد لصدق ما قلت.

حين لا يشكرك من أحسنت إليه

قد يحزنك جحود المعروف، ولا يلزم أن تنكر هذا الحزن. لكن لا تجعل غياب شكر إنسان دليلًا أن الله أضاع عملك. راجع أصل فعلك: هل كان مشروعًا، وهل حفظت فيه الحقوق، وهل قصدت به خيرًا؟ ثم استغفر مما تعلم من نقص، واسأل القبول. معرفة ذلك لا تجيز لأحد استغلالك، ولك أن تضع حدودًا مباحة لما تقدر عليه في المستقبل.

وتحتاج إلى التفريق بين عطية قدمتها إحسانًا وبين حق التزمه الآخر. في الأولى لا تحوّل المعروف إلى دين من الامتنان لا ينقضي، وفي الثانية تستطيع المطالبة بما ثبت لك على وجه مشروع. خلطهما يفسد العلاقة؛ يعطي المرء بلسان التبرع ثم يطالب بعوض لم يشترطه، أو يتنازل عن حق خوفًا أن يقال إنه يمن. سمِّ كل أمر باسمه، واسأل فيما التبس.

حين يستقر هذا الفرق يصبح رجاؤك أهدأ. تحسن لأن الله يحب الإحسان، وتطلب حقك لأن الشرع حفظه، وتقبل

النصيحة لأنها قد تبين لك الطريق. لا تحتاج أن تثبت أمام الجميع أنك خير الناس، ولا أن تنتظر منهم شهادة تسمح لك بأن ترجو ربك.

الفصل الثامن عشر

أسئلة تعترض طريق الرجاء

لا تنتهي أسئلة القلب عند قراءة تعريف صحيح. تعود بألفاظ جديدة حين تتغير الظروف. والجواب النافع لا يكرر جملة واحدة أمام كل سؤال؛ يميز الخبر من التفسير، والحكم من الحال، والقدرة من الرغبة. هذه مسائل تجمع ما سبق في الكتاب وتبين كيف يستعمل في فهم المواقف دون أن يصبح فتوى لكل واقعة خاصة.

دعوت ولم أحصل على ما سألت فماذا أقول

قل ما تعلمه بصدق: دعوت، وما زلت أرجو، ولم أر إلى الآن حصول هذا المطلوب على الصورة التي طلبتها. لا تضف إلى الوصف أنك علمت أن دعاءك رد أو أنك علمت سبب التأخر الخاص. ارجع إلى ما ثبت من أدب الدعاء، وصحح ما تعلم من خطأ في طلبك أو عملك، واستمر في الأسباب المشروعة. لا تجعل مراجعة النفس بحثًا متخيلًا عن ذنب يلزم أن يفسر الحدث، ولا تجعل الرجاء وعدًا بأن المطلوب سيأتي في الموعد التالي.

وقد يكون الانتظار مرهقًا فتحتاج إلى عون عملي أو إلى من يسمعك. لا يحرمك التذكير بالدعاء من هذه الحاجة. تريد بعض المواساة أن ترد الإنسان إلى كلمة واحدة كلما تكلم، فتغلق عليه باب بيان ما يحتاجه. لك أن تدعو وأن تسأل من يقدر على المساعدة، وأن تصف ضيقك دون قول يعترض على الله أو يتجاوز حدود ما تعلم.

هل يعني الخوف أنني لا أحسن الظن

الخوف اسم لأحوال مختلفة. خوف يدفع إلى طاعة ويمنع ظلمًا، وخوف طبيعي من ألم، وخاطر يكرهه صاحبه، واعتقاد أو قول يحتاج إلى تصحيح. لا يصدر حكم واحد على هذه الصور بمجرد اشتراك الاسم. انظر إلى ما تصدقه وما تختاره وما تقوله، وتعلم حكم ما أشكل عليك. وإذا كان الخوف شديدًا مستمرًا يعطل الحياة فاطلب العون المناسب، ولا تحول طلبه إلى دليل اتهام ديني لنفسك.

يمكنك أن تقول: أخاف من نتيجة لا أعلمها وأسأل الله خيرها. هذا أصدق من ضمان تخترعه كي يبدو كلامك قويًا. والرفق بالنفس هنا لا يعني الموافقة على كل معنى يرد عليها؛ تصحح

ما تبين بطلانه، وتدع ما لم تختره من خواطر، وتعود إلى الفعل الذي تستطيع أداءه.

هل يجوز أن أحزن إذا كنت أؤمن بالحكمة

نعم، أصل الحزن والدمع لا يناقض الإيمان بحكمة الله، وقد ثبت حزن النبي ﷺ وبكاؤه عند موت إبراهيم. الذي يحتاج إلى ضبط هو القول والعمل وما يتضمنانه من اعتراض أو ظلم. تستطيع أن تحزن وتسترجع وتطلب العون، ولا يلزم أن تدعي فرحًا بالمصيبة كي تكون صادقًا. ومواضع الصبر والرضا ومراتبها تتعلم من أهل العلم دون أن نجعل عبارة عامة امتحانًا لكل متألم.

ومعرفة الحكمة العامة لا توجب أن تعرف الحكمة الخاصة في كل واقعة. لا تكلف نفسك استخراج فائدة خفية قبل أن يسمح لك بالاعتراف بالألم. قد تعرف بعض الخير بعد زمن وقد لا تعرفه، ويبقى إيمانك بما أخبر الله به وعملك بما شرع ممكنين في الحالتين.

كيف أرجو القبول وأنا أعرف نقصي

معرفة النقص تدعوك إلى إصلاحه والاستغفار منه، ولا توجب الجزم بأن الله لن يقبل منك. تبذل ما تستطيع من الإخلاص والمتابعة وتؤدي الحقوق، وتسأل الله القبول. الثقة بصدق وعده لا تساوي شهادة لنفسك بأنك حققت كل شرط على الكمال. يجتمع الافتقار والرجاء حين تعرف فضله وحاجتك إليه معًا.

وإذا لم تعرف نقصًا محددًا فلا تخترع قائمة من الاحتمالات كلما انتهيت من عمل. المراجعة لها سبب وحد، وما كان تفتيشًا يقطع عليك العبادة ويزيد الوسواس يحتاج إلى مسلك آخر يبينه من يحسن النظر في حالك. ليس كثرة الشك مرادفة لورع أو إخلاص، ولا راحة النفس وحدها شهادة بالقبول.

هل كل تعثر بعد التوبة يكشف أنني كاذب

لا يلزم ذلك. من تاب صادقًا ثم وقع مرة أخرى احتاج إلى توبة جديدة ومعالجة ما يعرف من أسباب الخطأ. أما من رتب للمعصية من البداية محتجًا بأنه سيتوب لاحقًا فليس وصفه وصف من عزم على الترك ثم ضعف. لا تسوِّ الصورتين، ولا

تجعل الفرق حيلة لتسمية كل إصرار تعثرًا بريئًا. انظر بصدق إلى ما تعلم من قصدك وفعلك، وتعلم ما يلزم في الحقوق وأسباب التوبة.

والشعور بالندم وحده لا يؤدي حقًا يمكن أداؤه. إذا علمت ما يلزمك فلا تؤخره انتظارًا لصفاء داخلي كامل. قد يكون أول ما يعينك على صدق الرجوع أن ترد أمانة، أو توقف طريقًا إلى أذى، أو تسأل عن حكم. ثم تظل راجيًا رحمة الله، لا تتخذ عجزك عن محو الماضي عذرًا لترك إصلاح الحاضر.

هل الأخذ بالاحتياط يناقض التوكل

الاحتياط المشروع سبب، والتوكل اعتماد القلب على الله مع فعل ما شرع. لا يلزم من توثيق اتفاق أو سؤال عن خطر أو استشارة خبير أنك أسأت الظن بالله. أنت تتعامل مع أسباب بشرية، وقد أمرت بالصدق وحفظ الحقوق. الذي يحتاج إلى تصحيح أن تجعل الاحتياط ضمانًا مطلقًا، أو أن تسترسل فيه حتى تطلب من الحياة خلوًا تامًا من كل احتمال قبل أي فعل.

وتختلف الحاجة إلى الاحتياط بحسب العواقب. قرار صغير يمكن الرجوع عنه ليس كقرار يمس مالًا كبيرًا أو سلامة إنسان أو حق غيرك. لا يضع الكتاب مقدارًا واحدًا لكل القرارات، بل

يذكرك أن تستعين بالعلم المناسب، وأن تعطي الخطر قدره دون تهويل أو استخفاف.

كيف أميز الإلهام الذي أرتاح له من الدليل

قد يخطر لك معنى حسن أو تشعر بانشراح، فتنتفع به إذا وافق الشرع ولم تبن عليه حقًا باطلًا. لكن الشعور لا يصبح وحيًا ولا دليلًا على الغيب، ولا حجة تلزم غيرك. إذا تعلق الأمر بحكم فمرجعه الأدلة وفهم أهل العلم، وإذا تعلق بواقعة فاطلب بينتها، وإذا تعلق بقرار فخذ بأسبابه. لا تجعل قوة الانفعال تعوض ما نقص من العلم.

ومن الخطأ أن تختبر المستقبل بالمصادفات: كلمة رأيتها، أو لون ظهر، أو ترتيب أرقام. لم يجعل حديث الاستخارة هذه الأشياء شرطًا ولا علامة ملزمة. ادع الله وانظر في السبب المشروع، ولا تحمل الحوادث معنى خاصًا لم يثبت لمجرد أنك كنت تنتظر جوابًا.

أيمكن أن أحسن الظن وأغير خطتي

نعم، إذا ظهر ما يقتضي التغيير وكان التغيير مشروعًا. الثقة بالله لا توجب الجمود على تقدير بشري أول. قد تتعلم

معلومة تغير ما رجحته، أو تتبدل قدرتك، أو يظهر حق أغفلته. راجع الخطة بما ظهر، ووف بما يلزمك من التزامات، ولا تجعل كلمة التوكل ستارًا للاستمرار في خطأ معروف.

وقد يكون التراجع نفسه هروبًا من مشقة معتادة لا سببًا معتبرًا للتغيير. لذلك لا يكفي الاسم أيضًا؛ تنظر في حقيقة ما حدث، وتستشير عند الحاجة، وتتحمل مسؤولية الاختيار. حسن الظن لا يلغي هذه المسؤولية، لكنه يحميك من أن تجعل الخطأ البشري خصومة مع ربك أو نهاية لإمكان الإصلاح.

إذا كان الله يعلم حاجتي فلماذا أدعوه

الدعاء عبادة أمر الله بها، وفيه افتقارك وسؤالك وإظهار حاجتك إلى ربك. ليس إخبارًا له بما كان يجهله، تعالى الله عن ذلك، ولا محاولة لإقناعه بمصلحة خفيت عليه. تعرف أنه يعلم ثم تسأل لأنه دعاك إلى سؤاله، وتعلم أنه يقدر ثم تطلب من فضله ما لا تستقل به. علمه بحاجتك هو مما يطمئنك إلى صدق توجهك، لا مما يلغي هذا التوجه.

وفي الدعاء تصلح حاجتك نفسها؛ تسأل ما يجوز، وتتعلم من المأثور ما يجمع الخير، وترجع عما تبين أنه اعتداء. لا يكلفك

ذلك أن تتصنع كلمات بعيدة عن فهمك. تستطيع أن تدعو بما تحتاجه من خير دينك ودنياك، مع حفظ الأدب والافتقار، دون ضمان تتوهمه أو استغناء تدعيه.

ما الذي أعرف به أنني انتفعت بهذا الكتاب

انظر إلى فهم أو فعل تغير على وجه محدد. ربما كنت تعد نفسك بنتيجة لا دليل عليها فصرت ترجُ الخير دون جزم، أو كنت تؤجل حقًا باسم الرحمة فبدأت أداءه، أو كنت تحاكم كل خوف فتعلمت الفرق بين الانفعال والاختيار. هذه علامات تعلم وعمل ظاهرة، وليست درجة تقيس الإيمان أو شهادة بالقبول.

ولا يلزم أن تستوعب جميع الفصول في وقت واحد. عد إلى ما تحتاجه عند الموقف، واقرأ الدليل في سياقه، واسأل فيما أشكل. يبقى العلم نافعًا حين يخرج بك إلى عبادة صادقة وحق مؤدى وعلاقة أعدل، لا حين يصبح مزيدًا من العبارات التي تحسن وصفها ولا تعرف ما تفعل بها.

الفصل التاسع عشر

الأسباب التي تبذلها والقلب الذي يعتمد على الله

تبدو كلمة الأسباب واضحة حتى يختلف الناس في تطبيقها. واحد يجعلها كل شيء، فلا يرى في النتيجة إلا قوة خطته وضعف خطة غيره. وآخر يتحدث عن التوكل كأن بذل السبب اعتراف بنقص الثقة. وبين الطرفين يعيش أكثر الناس؛ يعملون ويرجون، ثم يختلط عليهم الأمر حين تنجح وسيلة ضعيفة أو يفشل جهد كبير. يحتاجون إلى فهم يحفظ قيمة العمل وحدود قدرته في وقت واحد.

قد أمر الحديث بالحرص على النافع والاستعانة بالله، ولم يجعل أحدهما مرحلة نستغني بها عن الآخر. فالسبب الذي نعرف مشروعيته ونفعه يبذل، والاعتماد على الله يصحبه، والنتيجة لا تتحول إلى ملك لنا بمجرد أننا بذلناه. هذا الأصل لا ينفي أن للأسباب آثارًا، ولا يجعل كل النتائج عشوائية في نظرنا؛ يدعونا إلى تعلم الآثار التي يمكن معرفتها، وإلى التواضع فيما لا نحيط به.[٢٣]

---

٢٣ مسلم، الصحيح، كتاب القدر، حديث ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثلاثة أسئلة قبل استعمال الوسيلة

قبل أن تدخل طريقًا إلى مطلوبك، اسأل عن مشروعيته. بعض الوسائل يحقق غرضًا قريبًا لكنه يتضمن غشًا أو ظلمًا أو مالًا محرمًا. النجاح المحتمل لا يغير حكمها. فإذا علمت المنع اجتنبت، وإذا التبس الحكم سألت بصدق، ولم تخف ما يؤثر في الجواب. الرغبة في الخروج من الضيق لا تجعل كل باب يفتح أمامك باب فرج مشروع.

ثم اسأل عن حقيقة نفعه في واقعك. قد يكون مباحًا لكنه لا يناسب حاجتك أو قدرتك أو وقتك. ليس حسن الظن أن تنفق جهدًا في وسيلة لم تفهم كيف تتصل بالغرض، ثم تتهم نفسك حين لا تنفع. تعلم قدرًا كافيًا من الأمر، واستعن بالخبرة التي تحتاجها، وميز بين حكاية نجاح أعجبتك وبين دليل يفيد أن الطريق مناسب لك. تختلف الظروف، ولا تختصرها حرارة قصة يرويها صاحبها.

واسأل بعد ذلك عما يترتب عليه من حقوق. قد يناسبك أمر في نفسه لكنه يستهلك مالًا ليس لك وحدك، أو وقتًا أؤتمنت عليه، أو يحمل غيرك خطرًا لم يرض به. لا تنفصل أمانة الطريق عن صلاح المقصد. من طلب خيرًا عامًا بوسيلة تضيع

حقًا خاصًا لا يعفيه اسم الخير من سؤال الحكم وإصلاح أثر فعله.

هذه الأسئلة لا يقصد بها تعطيل كل قرار. تتسع بحسب أثره؛ ما كان يسيرًا ظاهر الحكم والنفع لا يحتاج إلى ملف طويل، وما كان كبير العاقبة يحتاج إلى بيان أوسع. الاقتصاد في السؤال نفسه نوع من حسن التدبير: لا تهمل ما يؤثر، ولا تغرق فيما لا يغير الاختيار. وإذا احتجت إلى من يساعدك في تقدير مقدار البحث فاسأل أهل الخبرة بالمجال.

معرفة السبب لا تعني امتلاك النتيجة

قد تبذل جهدًا صحيحًا ثم يحول بينه وبين الثمرة ما لم يكن في قدرتك. لا يلزم أن يثبت ذلك أن الجهد كان خطأ، كما لا يلزم أن يكون كل فشل أمرًا خارج مسؤوليتك. تحتاج إلى مراجعة عادلة تبحث فيما يمكن التحقق منه: هل استوفيت ما يلزم، وهل كانت المعلومة صحيحة، وهل تغيرت الظروف، وما الذي ما زال ممكنًا؟ هذه أسئلة تعلم، لا محكمة تريد أن تجد متهمًا بأي ثمن.

وفي النجاح كذلك لا تلغِ أثر ما لم تصنعه. ربما اجتهدت، وكانت هناك فرصة لم تختر توقيتها، أو مساعدة من إنسان،

أو ظرف ملائم لم يكن متاحًا لغيرك. الاعتراف بهذا لا يهين جهدك، بل يجعلك أشكر وأعدل في النظر إلى الناس. قد تسعى وتنجح، لكنك لا تستطيع أن تجعل نجاحك برهانًا أن كل من لم يصل كان أقل صدقًا أو إرادة.

ومن هنا تتضح خطورة العبارات التي تعد كل مجتهد بالنتيجة نفسها. قد يراد بها التشجيع، لكنها تحمل وعدًا لا يملكه قائلها. شجع على التعلم والجد والأمانة، وبين ما يفيد من الأسباب، واذكر حدود الخبرة. القارئ يحتاج إلى معرفة تساعده على العمل، لا إلى ضمان ينتزع منه حق الحزن والمراجعة إذا خالفه الواقع.

متى تترك سببًا كنت تتعلق به

ربما علمت بعد مدة أن وسيلة ما لا تنفع أو أن ضررها غلب على منفعتها. قد يصعب تركها لأنك أنفقت فيها وقتًا ومالًا، أو لأن الناس يعرفونك بها، أو لأنك ربطت الرجاء كله بها. لكن ما مضى لا يجعل الاستمرار صوابًا تلقائيًا. انظر في المعطيات الحالية، واستشر في التبعات، وأد ما يلزمك من حقوق، ثم غيّر ما ظهر أن تغييره أصلح.

وهذا غير الفرار من كل صعوبة. بعض الوسائل يحتاج إلى زمن وجهد قبل أن يظهر أثرها، وبعضها لا يصلح أصلًا، ولا يحسم الفرق مجرد شعورك بالضيق. تستعين بمن يعرف المجال، وتحدد ما يعد دليل تقدم أو دليل خلل، وتراجع في وقت يناسب طبيعة الأمر. لا تجعل الملل وحده مفتيًا، ولا تجعل العناد اسمًا للعزم.

وقد يطلب منك غيرك البقاء في سبب لأنه لا يريد الاعتراف بأنه نصحك به. احترم إحسانه إن كان قد أراد الخير، لكن لا تجعل حفظ صورته مقدمًا على حق ظهر لك. تستطيع أن تشكره على ما بذل، وأن تبين أن المعلومات تغيرت، وأن تتحمل مسؤولية قرارك الجديد. الرجاء بالله أوسع من حفظ رواية واحدة عما كان ينبغي أن يحدث.

لا تدع الرغبة في الأمان تبتلع حياتك

قد يؤدي الخوف إلى جمع احتياطات لا تنتهي. يستكمل الإنسان سببًا ثم يبحث عما وراءه، حتى يصير التأكد هو العمل الوحيد الذي يؤديه. كثير من أمور الدنيا يبقى فيه احتمال مهما تعلمت، ولا يملك الخلق أن يزيلوه كله. حسن

التوكل يساعد على قبول هذا الحد مع بذل السبب المعقول؛ فلا يطلب القلب من العلم البشري ما ليس في وسعه.

تستطيع أن تميز بين خطر معلوم يحتاج إلى إجراء، وخاطر متكرر يعيد السؤال بعد وضوحه. الأول يعالج في موضعه، والثاني لا يعالج دائمًا بمزيد من التحقق. إذا صار التحقق مرهقًا ومعطلًا، فاطلب مساعدة مناسبة بدل أن تحول هذا الفصل إلى قائمة احتياطات جديدة. غرضه أن يصلح علاقتك بالسبب، لا أن يجعل كل حياة مشروع تدقيق لا ينتهي.

وفي الطرف الآخر، قد يستعمل الإنسان الكلام على العجز البشري ليترك ما يستطيع. يقول لا أحد يعرف المستقبل، فلا حاجة إلى تعلم أو سؤال. هذا حق استعمل في غير موضعه؛ عدم الإحاطة لا يلغي العلم الجزئي النافع، وعدم ضمان السلامة لا يجعل الأخطار كلها سواء. افعل ما تعرف نفعه ومشروعيته، واستكمل ما يمكن، وفوض ما وراءه إلى الله.

حين تُغلق وسيلة ولا ينقطع الرجاء

قد يتعلق القلب بشخص واحد يملك فيما يظن مفتاح المطلوب، أو بفرصة واحدة يرى بعدها فراغًا كاملًا. إذا اعتذر الشخص أو فاتت الفرصة شعر أن أبواب الله قد أغلقت. ما

وقع قد يكون فقد سبب مهم فعلًا، ومن حقه أن يحزن عليه؛ لكنه لا يملك من علم الغيب ما يثبت أن الخير كله كان محصورًا فيه.

لا يعالج هذا الشعور بوعد أن البديل سيكون أفضل حتمًا في وجه دنيوي معين. يعالج بصدق أوسع: هذا الباب لم يتيسر، وهناك ما يمكن بحثه أو تعلمه أو تعديله، وهناك ما لا نعلمه من المستقبل. نسأل الله من فضله، ونسعى في المتاح، ونصبر على ما لم يتضح. بقاء الرجاء لا يشترط أن نرسم الآن بديلًا يساوي الصورة التي فقدناها.

وقد لا يظهر بديل قريب في بعض الأحوال. يبقى للإنسان من العبادة والحقوق والعلاقات والأعمال ما يستطيع أداءه، وقد يحتاج إلى دعم مباشر يتناسب مع شدته. لا يطلب منه أن يثبت قوة إيمانه بابتكار حل لا يقدر عليه. يرجو الله وهو محدود القدرة، ويؤدي المقدار الممكن، ويقبل العون المشروع؛ فحقيقة الافتقار تظهر حين تنتهي تصورات الاكتفاء.

هذه منزلة تحفظ للقلب حريته من عبودية الوسيلة. يحب ما ينفعه ويسعى إليه، لكنه لا يجعله مصدر المعنى كله. إذا تيسر شكر، وإذا تعسر راجع وصبر، وفي الحالين يطلب الله الذي يملك الأسباب والنتائج، ولا يستغني عنه بما أُعطي منها.

الفصل العشرون

الرجاء في طريق التعلم والنصح

من يريد نفع الناس قد يحمل في قلبه رجاء واسعًا، ثم يتعب حين لا يرى أثرًا قريبًا لكلامه. يشرح ويكرر، ويظن أن وضوح الحق له يوجب أن يفهمه الآخر في اللحظة نفسها. وربما صار تأخر الاستجابة سببًا للقسوة، أو جعل الغاية النافعة مبررًا للمبالغة في الحكايات والوعود. يحتاج الناصح إلى حسن ظن بالله يحفظ صدقه وصبره وحدود مسؤوليته.

أنت مسؤول عن تعلم ما تقول، وعن أمانة نقله، وعن اختيار طريقة مشروعة تناسب من تخاطب، بقدر علمك وقدرتك. ولا تملك أن تخلق الهداية في قلبه، أو أن تختصر جميع ظروفه في موقف واحد. يرجى له الخير ويدعى له، ويبين الحق بعلم، وتؤدى الحقوق. أما السيطرة على استجابة الإنسان فليست عملًا تستطيع أن تعد نفسك به ثم تلومه لأنه لم يحققه لك.

قبل أن تطلب من الآخر أن يتغير

اسأل ماذا فهم من كلامك. قد يكون قد سمع ألفاظًا يجهل معانيها، أو فهم نصيحتك اتهامًا بأمر لم يفعله، أو رأى تعارضًا بين ما تقول وما يعلمه من واقعة. هذه احتمالات تحتاج إلى سؤال لا إلى جزم بنيته. قد يفيد شرح لفظ أو إزالة التباس أكثر مما يفيد تكرار العبارة بصوت أعلى.

وقد يكون العائق أن النصيحة لا تميز بين الواجب الذي يلزمه وبين الوسيلة التي تفضلها أنت. تطلب منه أن يصلح تقصيره بطريقة واحدة، فإذا اختار طريقة مشروعة أخرى عدّدت ذلك رفضًا للحق. تعلم حكم المقصد والوسيلة، واترك للناس ما وسعه الشرع من اختيار. قوة المرجعية لا تعني أن كل تنظيم شخصي لك صار ملزمًا للآخرين.

وربما كان الحق واضحًا وهو مقصر فعلًا. يبقى الرفق والعدل نافعَين في بيان ما يلزم، من غير تمييع للحكم ولا اختراع عذر لكل فعل. اختر ما يفتح طريق الإصلاح: خطوة معلومة، أو سؤال علمي، أو أداء حق، أو إزالة سبب إلى المعصية. ليس كل تقصير يعالج بخطاب شامل يجعل صاحبه لا يرى من نفسه إلا الفشل.

العلم الذي لا يستعجل التصدّر

قد يتعلم الإنسان معنى نافعًا فيريد نشره فورًا. يحسن أن يفرح بالعلم، لكن يحتاج أن يميز ما فهمه من ما ظنه، وأن يعرف حدود الاستدلال. لا يحول قراءة مقطع إلى اختصاص في بابه، ولا ينقل حكمًا على رواية إلى ألفاظ أخرى، ولا يختلق اسم كتاب أو موضعًا لمراجعه ليبدو كلامه موثقًا. أمانة العلم عبادة، وثقة الجمهور ليست مبررًا للتوسع فيما لا يحسن.

يمكن أن تنقل نصًا صحيحًا بإحالته، وتقول إن هذا ما فهمته من شرحه، وتدل على من هو أعلم منك. وإذا سئلت عما لا تعرفه فقل لا أعلم وابحث أو أحل. قد يقل وهج حضورك في أعين بعض الناس حين يرون حدود علمك، لكنه يحفظ لهم حقًا أعظم من الانبهار؛ أن لا يتلقوا عنك ما بني على دعوى لا حقيقة لها.

وحين يتبين خطأ في نقل نشرته، فصححه في الموضع الذي يصل فيه التصحيح إلى من تأثر به بقدر ما تستطيع. لا يكفي أن تغير رأيك سرًا إذا بقيت نسبة خاطئة تتداول باسمك. تذكر أن رجاء النفع لا ينفصل عن إصلاح الضرر، وأن الصدق عند التصحيح قد ينفع القارئ أكثر من دفاع طويل عن سبب وقوع الخطأ.

نتائج التعليم ليست أخبارًا عن القلوب

قد تستطيع قياس أن طالبًا فهم مفهومًا أو أتقن مهارة أو التزم إجراء في وقت معين. هذه نتائج نافعة بحدودها، لكنها لا تصير مقياسًا لإخلاصه أو قبول عمله. لا تعطي المتعلم درجة في حسن الظن بالله بناء على عدد الجمل التي حفظها أو طريقة إظهاره للتأثر. المعرفة الظاهرة تفحص بما يناسبها، والباطن إلى الله، والعمل الشرعي له شروطه وأحكامه.

إذا احتجت إلى تقويم برنامج تعليمي فاسأل عما يختبره فعلًا. هل يفهم القارئ الفرق بين الوعد والأمنية؟ هل يستطيع أن يميز مثالًا افتراضيًا من قصة تاريخية؟ هل يعرف موضع طلب المشورة؟ هذه أسئلة يمكن النظر في أجوبتها، من غير أن نزعم أنها تكشف حقيقة إيمانه. والنتيجة السلبية فيها تدل على حاجة إلى شرح أو تعديل، لا على حكم ديني شامل على صاحبها.

ومن صدق النصح ألا تنسب إلى طريقتك أثرًا لم تختبره. ربما قال لك قارئ إنه انتفع، فتفرح بشهادته على حاله، ولا تجعلها برهانًا أنها تنفع الجميع أو تعالج اضطرابًا بعينه. فرق بين انطباع وملاحظة وتجربة مقيسة، واحفظ لكل منها اسمه. قد

يكون في بيان حدود المعرفة خير من مبالغة تجلب اهتمامًا ثم تضعف الثقة عندما يسأل الناس عن دليلها.

الصبر الذي لا يتحول إلى قسوة

يتعب من ينصح قريبًا يحبه ويخشى عليه. وقد يظن أن بقاء اللطف بعد التكرار ضعف، فيزيد العتاب حتى يصير كل لقاء مناسبة لإعادة الخطأ. انظر في أثر طريقتك، واستعن بمن هو أحكم أو أقرب إلى فهم المسألة عند الحاجة. بعض المواقف تحتاج إلى حد واضح أو إجراء مشروع، وبعضها إلى تغيير طريقة الكلام، ولا يحسم الفرق غضبك وحده.

ولا تجعل الحب ذريعة إلى مراقبة ما لا يحق لك مراقبته أو كشف ما لا يحل كشفه. لكل علاقة حدود، وللنصيحة آداب، ولحماية الناس من الضرر وسائل مشروعة تختلف بحسب الحال. الخير الذي ترجوه لا يبيح وسيلة محرمة. وإذا التبست عليك الموازنة فالسؤال أولى من تصرف واسع تبرره بعد وقوعه بحرارة حرصك.

ثم احتفظ للآخر بصورة تتسع للإصلاح. من عرفته مخطئًا أمس قد يصدق اليوم، ولا يلزم أن يظل كل كلامه متهمًا لأنك رأيته في حال سابقة. تقبل ما ظهر من خير، وتحفظ الحذر

المشروع حيث بقي سببه، ولا تطالب بإعلان عاطفي يرضيك كي تعترف بتغير فعل واضح. رجاؤك بالله يشمل أن تفرح بهداية الناس، لا أن تحرص على إثبات أنك كنت مصيبًا في وصف خطئهم.

حين لا ترى ثمرة جهدك

قد تنفع كلمة بعد زمن لا تعلمه، وقد لا يكون نصحك في صورته الحالية نافعًا كما ظننت. لا تجزم بأحد الأمرين لتريح نفسك. راجع ما تستطيع مراجعته من العلم والطريقة والحقوق، واصلح ما تبين، واستمر فيما تعلم مشروعيته بحسب القدرة. ادع الله بالقبول والنفع، واعلم أن الأجر يرجى بالصدق والاتباع، لا بمجرد وصولك إلى رقم من الجمهور.

وقد يكون الواجب أن تتوقف عن تصدر باب لا تحسنه حتى تتعلمه. ليس هذا انقطاعًا عن الخير؛ قد يكون خيرك الآن أن تصغي وتسأل وتقرأ، أو أن تخدم في عمل آخر تقدر عليه. لا تحصر هويتك في دور واحد حتى تعجز عن الرجوع إذا ظهر نقصك فيه. من حسن الظن بالله أن تثق بأن أبواب طاعته أوسع من المكان الذي اعتدت أن يراك الناس فيه.

الفصل الحادي والعشرون

حين يثبت الوعد ويتغير ما توقعت من الطريق

من أصعب ما يعرض للقلب أن يكون أصل رجائه صحيحًا، ثم يضيف إليه من عند نفسه موعدًا أو صورة، فإذا لم تقع الصورة توهم أن أصل الوعد قد تغير. وقد يقع ذلك لمن يحب الخير ويطلبه بصدق؛ فتحتاج محبته إلى علم يصحح توقعه، كما يحتاج تردده إلى عزم يحمله على العمل. ومن أوضح ما يفتح هذا الباب خبر الحديبية، بما فيه من ثبات النبي ﷺ، وشدة ما نزل بأصحابه، والحوار الذي كشف الفرق بين الخبر وما فهم منه في توقيت تحققه.

الخبر طويل، وإثباته متصلًا يحفظ علاقات أجزائه. فالمفاوضة والشورى والوفاء بالعهد والرجوع عن بعض ما اشتهته النفوس وقائع في سياق واحد، لا عبارات متناثرة نختار منها ما يلائم موقفًا حاضرًا. وفيه ألفاظ وأحداث من ظرف الحرب الذي وقع فيه؛ لا تنقل أحكامه إلى خصومات الأفراد، ولا تستعمل وقائعه لتسويغ عدوان. والمقصود هنا تتبع معنى الثقة بالله حين لا تبدو أول الطريق على الصورة التي توقعها المؤمن.

عن المسور بن مخرمة، ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قال خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ " إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين ". فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس حل حل. فألحت، فقالوا خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ " ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ".

ثم زجرها فوثبت، قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال إني

تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ " إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره ". فقال بديل سأبلغهم ما تقول. قال فانطلق حتى أتى قريشا قال إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال ذوو الرأى منهم هات ما سمعته يقول.

قال سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ. فقام عروة بن مسعود فقال أى قوم ألستم بالوالد قالوا بلى. قال أولست بالولد قالوا بلى. قال فهل تتهموني. قالوا لا. قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني قالوا بلى. قال فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آته. قالوا ائته. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل،

فقال عروة عند ذلك أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك.

فقال له أبو بكر امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه فقال من ذا قالوا أبو بكر. قال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة.

فقال أى غدر، ألست أسعى في غدرتك وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية، فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ " أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شىء ". ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه.

قال فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا

أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا قط، يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة دعوني آته. فقالوا ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ " هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له ". فبعثت له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص. فقال دعوني آته. فقالوا ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ " هذا مكرز وهو رجل فاجر ". فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو .

قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ " لقد سهل لكم من أمركم ". قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات، اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ " بسم الله الرحمن الرحيم ". قال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ " اكتب باسمك اللهم ". ثم قال " هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ".

فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ " والله إني لرسول الله وإن كذبتموني. اكتب محمد بن عبد الله ". قال الزهري وذلك لقوله " لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ". فقال له النبي ﷺ " على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ". فقال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب. فقال سهيل وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا.

قال المسلمون سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى. فقال النبي ﷺ " إنا لم نقض الكتاب بعد ". قال فوالله إذا لم أصالحك على شىء أبدا. قال النبي ﷺ " فأجزه لي ". قال ما أنا بمجيزه لك. قال " بلى، فافعل ". قال ما أنا بفاعل. قال مكرز بل قد أجزناه لك.

قال أبو جندل أى معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذابا شديدا في الله. قال فقال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقا قال " بلى ". قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال " بلى ". قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال " إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري ". قلت أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به قال " بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ". قال قلت لا. قال " فإنك آتيه ومطوف به ".

قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا قال بلى. قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى. قلت

فلم نعطي الدنية في ديننا إذا قال أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به قال بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام قلت لا. قال فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري قال عمر فعملت لذلك أعمالا. قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه " قوموا فانحروا، ثم احلقوا ".

قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أم سلمة يا نبي الله، أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم، حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} حتى بلغ {بعصم الكوافر} فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى

المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا.

فاستله الآخر فقال أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله ﷺ حين رآه " لقد رأى هذا ذعرا ". فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ " ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد ". فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

قال وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل،

فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} حتى بلغ {الحمية حمية الجاهلية} وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.[٢٤]

قراءة الموقف دون اقتطاع ألفاظه

تحفظ رواية الحديبية ألفاظ المتحدثين كما وقعت في سياق المواجهة، ومنها كلام شديد في الرد على الطعن في وفاء الصحابة للنبي ﷺ. إثبات هذا الكلام في الخبر أمانة في النقل، ولا يحول كل لفظ فيه إلى أدب عام يخاطب به القارئ أهله أو مخالفه. النصوص يضم بعضها إلى بعض، وتفهم الوقائع بأحوالها وأحكامها، ولا تستخرج من مشهد واحد رخصة مفتوحة في السب أو الإهانة.

وقد يقرأ شخص جزءًا من الرواية فيتوقف عند كلمة صادمة له، فيحتاج إلى شرح لغوي وتاريخي أو فقهي. من حقه أن

---

٢٤ البخاري، الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديثا ٢٧٣١ و٢٧٣٢، عن المسور بن مخرمة ومروان. والقترة: الغبار؛ والثمد: الماء القليل؛ والبدن: الإبل المعدة للهدي؛ وسيف البحر: ساحله.

يسأل، ومن أمانة المجيب أن يميز ما يعرفه مما يحتاج إلى مراجعة. لا يكفي أن يقول إن الكلمة وردت في كتاب صحيح ثم يمنع فهمها، ولا أن يحذفها من الخبر ليصنع نصًا أسهل على ذوقه. نحفظ المنقول ونبين حد الانتفاع، ونرجع فيما أشكل من الحكم إلى من يحسن جمع أدلته.

ومثل ذلك ما في الخبر من تعظيم الصحابة للنبي ﷺ وآثاره؛ هو حديث عن مقامه الذي خصه الله به، فلا ينقل إلى كل صاحب علم أو نفوذ ليطالب الناس بمثل هذا التعظيم لنفسه. محبة الصالحين وتوقير أهل العلم لهما أدبهما، ولا يصح اتخاذ مقام النبوة سلّمًا لتعظيم شخص فوق منزلته. حسن الظن بالله يحمل القارئ على تعظيم رسوله واتباعه، ويصون علاقته بالبشر من ادعاء خصائص لم تثبت لهم.

التوقيت الذي لم يكن في الخبر

سأل عمر رضي الله عنه عن دخول البيت والطواف به، فرده النبي ﷺ إلى الحد الذي أخبره به: هل أخبره أنه يأتيه في ذلك العام؟ وحين أجاب بالنفي بقي الوعد ثابتًا وزال التوقيت الذي ألحقه التوقع به. ثم سأل أبا بكر رضي الله عنه، فكان الجواب مؤكدًا لهذا الفرق. ليست المسألة تلاعبًا بالألفاظ بعد

فوات الأمل؛ هي صيانة لما قاله الرسول ﷺ من زيادة لم يقلها، وصيانة لليقين من أن يربط بما لم يخبر به.

هذا موضع يحتاج إليه كل من يقرأ نصًا في فضل عمل أو إجابة دعاء أو عاقبة تقوى. يتثبت أولًا من النص، ثم يفهم ما دل عليه، ثم ينظر هل جعل له من عند نفسه وقتًا أو مالًا أو شخصًا أو صورة لم يعينها الشرع. كلما وضحت هذه الحدود صار الرجاء أرسخ؛ لأن الذي ينتظر وعد الله لا يحمل الوعد خطأ تقديره هو. قد يكون للتوقع الدنيوي أسباب معتبرة، لكنه يبقى توقعًا، ولا يصير وحيًا لكثرة ما اطمأن إليه صاحبه.

ومن التطبيقات القريبة أن يبدأ المرء عملًا مباحًا بعد استخارة واستشارة، ثم يجعل نجاحه السريع برهانًا على صحة الاستخارة. أصل عبادته لله صحيح إذا أداها كما شرعت، أما قراره فيبنى على ما استطاع من نظر، وقد تظهر بعده معلومات تستدعي المراجعة. لا يقول إن الله أخلفه؛ لم يخبره الله أن هذه التجارة أو الوظيفة ستتم في هذا الشهر. وله أن يحزن ويتعلم ويغير الوسيلة، مع بقاء حسن ظنه بربه.

ولا يلزم من هذا أن تتوقف عن التخطيط أو أن تجعل كل حساب بلا قيمة. وقت التسليم في العقد معلوم بحسب الاتفاق، والموعد الذي تعد به غيرك مسؤولية تتعلم الوفاء بها.

الكلام هنا عن نسبتِك إلى الله ما لم يعدك به، لا عن إلغاء مسؤولية البشر عن مواعيدهم. من أخطأ في موعد قال أخطأت، ومن عجز شرع في بيان عجزه ومعالجة أثره، ولم يستعمل الحديث عن القدر ليجعل حق صاحب الموعد موضع اتهام.

الثبات على الغاية وسعة الوسيلة

في الخبر انتقال عن طريق، وحوار مع رسل، وكتابة صلح، وتغيير في الصيغة المكتوبة مع ثبات حقيقة الرسالة. وهذا يرشد القارئ إلى أن الثبات ليس جمودًا على كل تفصيل سبق أن تخيله. الحق الذي ثبت لا يتغير لأن خصمًا أنكره، وقد تتغير عبارة أو وسيلة في مجال يسعه الشرع ويقدره من له النظر فيه. وحين يختلط الأمران يظن الإنسان أن كل تعديل خيانة، أو يظن أن كل أصل قابل للمساومة، وكلاهما يخرجه عن حسن الفهم.

تأمل عملًا تعليميًا يقوم عليه فريق. قد يتفق أهله على خدمة محتاج إلى العلم، ثم يتبين أن الوقت المختار أو طريقة الشرح لا تناسب المتعلمين. يستطيعون تغيير الوسيلة وإبقاء الغاية، ويستطيعون سؤال من يفهم حاجتهم. لا يثبت

الإخلاص بإجبار الجميع على شكل أول تجربة، كما لا يثبت نجاح المشروع بتغيير غايته مع كل رغبة عارضة. تصحيح المسار يحتاج إلى معيار معروف، وبيانات صادقة، ومن يسمع الاعتراض من غير أن يجعله عداوة.

هذا المثال ليس قياسًا لأحكام الصلح النبوي على تنظيم درس؛ إنما هو تقريب لفارق عقلي بين الغاية والوسيلة. أما أحكام السياسة والعقود والمعاهدات فتبقى لأهل العلم والولاية كل بحسب اختصاصه. وحسن الظن بالله يعين صاحب الاختصاص على أداء ما عليه، ولا يمنح من يقرأ قصة سلطة يتصرف بها في دماء الناس أو عهودهم أو أموالهم.

الشورى في وقت الحزن

لما تأخر قيام الصحابة إلى النحر والحلق، دخل النبي ﷺ على أم سلمة وذكر لها ما لقي من الناس. فأشارت عليه بفعل يريهم انتهاء الأمر ويقودهم إلى الامتثال، فخرج وفعل، فقاموا. يظهر هنا نفع الرأي الصائب في معالجة موقف ثقيل، وأن المشاركة في الرأي ليست مزاحمة للمقام ولا ضعفًا في صاحب القرار. وقد يأتي البيان الذي يحتاج إليه الموقف من شخص لم يكن متصدرًا للكلام أمام الناس.

وللقارئ أن ينتفع بهذا في بيته وعمله: إذا ثقل على الناس انتقال لازم، فقد يحتاجون إلى وضوح عملي، وإلى من يشرح الخطوة الأولى، وإلى وقت يفهمون فيه ما تغير. تكرار الأمر وحده قد لا يحل كل تعثر. استمع ممن يعرف حالهم، وانظر هل في طريقتك ما يزيد الارتباك، ثم قدم لهم فعلًا يفهمونه. لا يلزم أن يتحول كل تأخر إلى نزاع حول النيات.

وفي المقابل لا يجعل حزن الإنسان كل تكليف عنه ساقطًا. في الخبر أمر نبوي بالتحلل بعد انتهاء الصلح، فكان المطلوب الامتثال. وأعمالنا تختلف أحكامها باختلافها؛ لكن المعنى الذي يجمعها أن نعترف بثقل الانتقال ثم نتعلم أداء الحق الذي بان، بدل أن نطالب بزوال كل انقباض قبل أن نبدأ. تستطيع أن تقدم خطوة صحيحة وأنت متأثر، وأن تستعين بمن يرافقك في الخطوة التالية.

الحماسة التي تقبل التصحيح

احتفظت الرواية بسؤال عمر رضي الله عنه، وبما ذكر من العمل بعده. لا تحذف النصوص ما يشق على صورة أصحابها ليبقى التعليم؛ فالصحابة يتعلمون من النبي ﷺ، ولهم من الصدق والفضل ما تعرفه الأمة. والقارئ أولى أن يدع لنفسه

باب التعلم، فلا يجعل اعترافه بأن فهمه كان ناقصًا هدمًا لشخصيته كلها.

قد تنصر رأيًا بحماسة ثم يظهر لك أنك زدت على الدليل. يسعك أن ترجع بوضوح يناسب مقدار الأثر: إن كان الخطأ أمام جماعة صححت لهم ما قلت، وإن ترتب عليه حق عالجته، وإن كان في تقدير خاص تعلمت منه. لا تحتاج إلى قصة جديدة تجعل فيها الحق معك من كل وجه. أحيانًا يكون أحسن ما تخرج به من التجربة أنك صرت أقل جرأة على ما لم تعلم، وأثبت فيما تعلم.

ومما يحفظ الصداقة والنصيحة أن تفرق بين من ينبهك إلى زيادة في فهمك ومن يسخر من أصل إيمانك. الأول قد يعينك على تعظيم النص حين يردك إلى حدوده، فلا تعاقبه لأنه خالف حماستك. اسأله عن مستنده، وناقشه بأدب، وعد إلى أهل العلم فيما يحتاج إلى تحقيق. كلما كان الحق أعز عليك من صورة الانتصار أمكنك الانتفاع بهذا الباب.

الوفاء حين يصبح ثقيلًا

لم يكن الوفاء في الخبر كلمة مريحة قيلت بعد انتهاء النزاع؛ ظهر أثره حين جاء من يشق ردُّه على المسلمين. وهذه وقائع

تحكمها النبوة والوحي والعهد في ظرفها، فلا يتصرف فيها قارئ بانتقاء عاطفي. لكنها تكشف أن الإيمان لا يختصر في مطالبة الناس بأن يعاملونا بما نحب؛ فيه التزامات يتحملها العبد ولو ثقلت عليه، مع طلب المشروع من الفرج.

وفي حياة الفرد صور واضحة لا تحتاج إلى هذا التعقيد: أمانة يعيدها إلى صاحب خالفه، أو بيان صادق يقدمه ولو خسر به مدحًا، أو شرط مباح التزمه ثم صار أقل ربحًا مما توقع. لا يسقط الحق لأن صاحبه لم يكن رفيقًا بك. وإذا اشتبه الحكم أو طرأ عذر معتبر، طلبت البيان من أهله، ولم تجعل الانفعال وحده منشئًا للحلال والحرام.

ينتهي هذا الفصل بالقارئ إلى دعاء وعمل: أن يسأل الله صدق الاتباع، ثم يتعلم أن يزن الأخبار بحدودها، وأن يفرق بين ما ثبت وما تخيله، وأن يفي بالحق الذي عرفه. لا تحتاج الثقة بالله إلى إنكار صعوبة الطريق؛ تحتاج إلى ألا يكون صعب الطريق هو الذي يعيد كتابة خبر الله في قلبك.

الفصل الثاني والعشرون

عبادة تبقى معها الحقوق محفوظة

قد يظن بعض الناس أن صدق الرجاء لا يظهر إلا في زيادة العمل حتى تنقطع بقية الحياة. فإذا نام كفايته شعر أنه فرط، وإذا أعطى أهله وقتًا اتهم نفسه، وإذا خفف نافلة ليستطيع فرضًا أحس كأنه رجع إلى الوراء. هذا التصور يحتاج إلى مراجعة مع السنة؛ فالعبادة اتباع، والحقوق تتعلم من الشريعة، وليس مقدار الإرهاق وحده دليلًا على القرب.

يروي أبو جحيفة رضي الله عنه خبرًا فيه نصح سلمان لأبي الدرداء، ثم عرض ما جرى على النبي ﷺ. وحفظ نهاية الخبر لازم؛ فالميزان هو إقرار النبي ﷺ، لا مجرد رأي صاحب في صاحبه.

عن أبيه، قال آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال لها ما شأنك قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما. فقال كل. قال فإني صائم. قال ما أنا بآكل حتى تأكل. قال فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء

يقوم. قال نم. فنام، ثم ذهب يقوم. فقال نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن. فصليا، فقال له سلمان إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ " صدق سلمان ".[٢٥]

وفي توجيه النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بيان آخر يربط القوة الحاضرة بالحقوق وبما قد تستطيعه النفس مع امتداد العمر:

قال حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال لي رسول الله ﷺ " يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ". فقلت بلى يا رسول الله. قال " فلا تفعل ، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله " . فشددت، فشدد على، قلت يا رسول الله، إني أجد قوة. قال " فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه ".

---

٢٥ البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، حديث ١٩٦٨، عن أبي جحيفة رضي الله عنه. ومتَبذِّلة: تاركة للزينة في هيئتها.

قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام قال " نصف الدهر ". فكان عبد الله يقول بعد ما كبر يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ.[٢٦]

الحق لا ينشأ من ميلك إليه

في الخبرين ذكر حق الرب والنفس والأهل والجسد والعين والزائر. من السهل أن يتذكر الإنسان الحق الذي يميل إلى أدائه، ويغفل حقًا أثقل عليه أو أقل ظهورًا للناس. قد يحب القراءة فيطيلها على حساب عمل التزم به، وقد يحب خدمة الغرباء فيترك أهله بلا عون، وقد يحب صورة المجتهد فيرفض نصح من يرى أثر اختياره عليه. حسن القصد محتاج إلى حسن ترتيب، وإلا حمل عمل جميل في ظاهره أثرًا مؤلمًا على من حوله.

لا يستقل المرء بتحديد كل حق بحسب رغبته؛ يتعلم الواجب والمستحب، وما هو له وما هو لغيره، وما يلزمه في الحال. فإذا تزاحمت أعمال نظر في مراتبها واستعان بأهل العلم عند الاشتباه. والمقصود أن يخرج من عبارة عامة مثل سأفعل

---

٢٦ البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، حديث ١٩٧٥، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. والزُّور: الزائرون.

الخير إلى سؤال أدق: أي خير يلزمني الآن، وبأي مقدار، وما الحق الذي سيتأثر بهذا الاختيار؟ هذه الأسئلة لا تبرد العبادة، بل تعين على وضعها في موضعها.

ومن الخطأ أن يجعل الحديث ذريعة لإلغاء الجد والاجتهاد. لم يقل سلمان لأبي الدرداء أن يترك الصلاة، بل صلى معه في آخر الليل. ولم ينه النبي ﷺ عبد الله عن أصل الصيام، بل بين له وجهًا من العبادة وحدًا يتناسب مع الحقوق. فالتصحيح يحفظ الخير ويهديه، ولا يحوله إلى دعوة للغفلة. يستقبل المؤمن هذا البيان برجاء أن يكون اتباعه أحب إلى الله من صورة اختارها لنفسه ثم أصر عليها.

القدرة في أول الطريق ليست كل الطريق

كان عبد الله بن عمرو يذكر القوة التي يجدها، ثم قال بعد أن كبر ما يدل على تقديره للرخصة النبوية. في هذا تعليم للإنسان أن ينظر إلى دوام العمل، لا إلى اندفاع أسبوع واحد. قد يستطيع اليوم برنامجًا شديدًا وهو متفرغ، ثم تتغير مسؤولياته أو صحته أو سكنه، فيجد أن ما التزمه يزاحم حقوقًا لم تكن في حسابه. التقدير الصادق يسأل عن قابلية

العمل للاستمرار وعن أبواب التخفيف المشروعة، ولا يكتفي بإعجاب صاحبه بقوة البداية.

وحين تتغير قدرتك لا تجعل المقارنة بأيام مضت هي المصدر الوحيد للحكم. تعلم حكم حالك، وأد ما تستطيع مما يلزمك، وحافظ على الخير الذي تقدر عليه. قد تكون طاعتك اليوم في قبول مساعدة، أو في استعمال رخصة ثبت سببها، أو في الاقتصار على قدر لا يضر واجبًا. وما كان عبادة مؤقتة أو نذرًا أو يمينًا فله حكمه الذي يسأل عنه؛ لا تجعل التنظيم الاختياري والالتزام الشرعي شيئًا واحدًا.

هذه الدقة تحفظ الرجاء من التقلب بين حماس يعِد بكل شيء ويأس يترك كل شيء. إذا عرفت أن الخطة وسيلة استطعت تعديلها، وإذا عرفت أن الفرض حق ثابت لم تجعله تابعًا للحماس. وقد تكون العودة إلى قدر يسير من النافلة مع حفظ الفرائض بداية أقوم من محاولة استعادة صورة مرهقة دفعة واحدة. العبرة بالصدق والاتباع وما تقدر عليه، لا بالمنافسة في حكاية التعب.

من يسمع أثر عملك على من حولك

رأى سلمان حال أم الدرداء وسأل، فلم يكن نظره محصورًا في عدد أعمال صاحبه. تعلم من ذلك أن للعبادة أثرًا في الحياة المشتركة يستحق أن يسمع. إذا قال لك من له حق عندك إن ترتيب وقتك يتركه وحده أمام مسؤولية لا يطيقها، فلا تجعل أول جوابك اتهامه بمعاداة الخير. افهم ما يصفه: هل هناك حق أهمل؟ هل يستطيع غيرك أداء بعضه؟ هل تحتاج الأعمال إلى وقت آخر؟

وقد يخطئ صاحب الشكوى أو يبالغ، لذلك لا يصح أن يتحول كل اعتراض إلى حكم نهائي. تسمع وتتحقق وتزن، ثم تبحث عن ترتيب عادل. ربما احتاج البيت إلى اتفاق واضح على وقت خدمة ووقت تعلم، وربما احتاج العمل التطوعي إلى توزيع أوسع، وربما كان الحل أن تعترف بأنك وعدت بأكثر مما تستطيع. هذه التفاصيل لا تعارض صفاء القلب؛ إنها من مواضع امتحان الصدق الذي تدعيه.

والنصيحة نفسها تحتاج إلى أدب. لا تدخل على الناس في كل نافلة لتتهمهم بتضييع الأهل، ولا تبن حكمًا على مشهد لا تعرف ما قبله وما بعده. إذا ظهرت قرينة معتبرة سألت برفق، وحفظت سترهم، وقصدت الإصلاح. ليس كل من اجتهد غاليًا،

ولا كل من أخذ برخصة متهاونًا. النص يعلم ميزانًا، ولا يوزع أحكامًا جاهزة على من لا نعرف حالهم.

فرح العمل من غير استعراض

حين يعتدل ترتيب الحقوق قد لا يبدو اليوم مثيرًا في الرواية. صلاة في وقتها، وعمل تؤدى أمانته، وخدمة في البيت، وذكر يسير، وراحة تعين على الغد. لكن نقص الإثارة ليس نقصًا في القيمة. مما يفسد النظر أن يتعلم الإنسان تسمية العمل خيرًا فقط إذا أمكن عرضه في صورة مدهشة، فيستصغر الواجبات المتكررة لأنها لا تصلح عنوانًا لحديث طويل.

لك أن تفرح بما يسر الله من طاعة، وأن تسأله القبول والمزيد. هذا الفرح لا يحتاج إلى أن يعرفه كل أحد، ولا إلى أن تجعل جهدك معيارًا تلزم به غيرك. من ينظر إلى ظاهرك قد لا يعرف حقوقك ولا عوائقك، وأنت لا تعرف من حياة الآخرين إلا بعض ما ظهر. دع مساحة التنافس في الخير مفتوحة، وأغلق باب التفاخر بما لا تستطيع أن تقيس به حقيقة القبول.

ويظهر حسن الظن بالله هنا في الاطمئنان إلى أن الحق الذي تؤديه لوجهه لا يضيع لأن الناس لم يسموه إنجازًا. لست

محتاجًا إلى أن تهمل حقًا ظاهر الوجوب لتحصل على صورة أرفع في نظرهم. سل الله أن يدلّك على مرضاته، ثم اقبل أن يكون موضعها اليوم في شأن قريب مألوف، يتكرر حتى يكاد لا يلاحظ.

كيف تعود إذا بالغت في التكليف

إذا أدركت أنك حمّلت نفسك أو من معك ما لا يطاق، فابدأ بوصف ما حدث بصدق. لا تقل إن العبادة أرهقتك بإطلاق وأنت قد أضفت إليها ترتيبًا لم تؤمر به؛ ولا تقل إن أهلك عطلوا خيرك وأنت لم تمنح حقوقهم نظرًا كافيًا. عين الجزء الذي كان اختيارك، والجزء الذي يلزمك شرعًا، والجزء الذي تحتاج في حكمه إلى سؤال.

ثم صحح ترتيبك بوضوح. أخبر من تأثر بالتغيير بما يحتاج إلى معرفته، وأعد الحقوق المؤجلة بحسب استطاعتك، وخفف من الأعمال الاختيارية ما يزاحم الواجب. قد تحتاج إلى اعتذار، وقد تحتاج إلى مساعدة في تنظيم الوقت، وقد تحتاج إلى ترك وعد لم يكن واقعيًا مع بيان أثر ذلك لمن اعتمد عليه. كل خطوة لها موضعها، ولا يكفي أن تقول إنك تعلمت الاعتدال ثم تبقي كل الأعباء كما كانت.

ومن الرحمة بالنفس ألا تحول التصحيح إلى محاكمة دائمة للماضي. انتفعت بنص لم يكن حاضرًا لك، فاحمد الله واعمل به. وسعة الشريعة ليست هزيمة لحماستك؛ هي هداية لها. يرجو العبد أن يلقى الله بقلب صادق وعمل موافق، لا بكشف يثبت أنه أتعب نفسه أكثر من غيره.

الفصل الثالث والعشرون

بعد تمام العمل كيف ترجو قبوله

للقلب شأن قبل الطاعة حين يعزم عليها، وشأن معها حين يؤديها، وشأن بعدها حين ينظر إلى ما فعل. وقد يبذل الإنسان جهدًا في الأولين، ثم يفسد عليه النظر الأخير راحته وصلته بالعمل. يتردد بين إعجاب يجعله يرى لنفسه منزلة مضمونة، ومحاسبة مضطربة تجعله ينسى كل ما فعل ولا يرى إلا احتمال النقص. والرجاء الصحيح يصحب العمل في مراحله كلها: يسأل الله العون قبل الفعل، ويتبع ما علم أثناءه، ثم يسأله القبول بعده ويصلح ما تبين من الخلل.

ليس المطلوب من العبد أن يستخرج شهادة من الغيب بأن عبادته قبلت. يعرف من نفسه ما يستطيع معرفته من قصد وعمل، ويزن الظاهر بالشرع، ويرجو رحمة ربه. وقد قرأت في هذا المجلد حديث النية وحديث نظر الله إلى القلوب والأعمال؛ فليكن آخر نظرك بعد العمل متصلًا بأوله: لماذا فعلت، وكيف فعلت، وما الذي ينبغي أن تتعلمه بعد ذلك؟

اكتمال المهمة لا يعني اكتمال النفس

قد ينتهي الإنسان من تعليم دورة أو رعاية مريض أو أداء أمانة فيشعر براحة كبيرة. هذه الراحة مفهومة، وقد يفرح بأن الله أعانه. لكنها لا تعني أنه صار في مأمن من كل تقصير لاحق، ولا أن كل ما صدر منه أثناء العمل حسن. في العمل الواحد قد تجتمع نية صادقة ومهارة جيدة وخطأ يحتاج إلى إصلاح. يستطيع أن يشكر على المعونة وأن يعتذر عن الخطأ في الوقت نفسه.

لنفرض مثالًا تحريريًا: جمع شخص مواد تعليمية نافعة ثم وجد أنه نقل فقرة بلا نسبة إلى صاحبها، أو أخطأ في تخريج خبر. لا يكون التصحيح طعنًا في كل المشروع، ولا يكون حسن مقصد المشروع عذرًا في ترك التصحيح. يعيد النسبة، ويعدل الموضع، ويخبر من يحتاج إلى النسخة الصحيحة. ويستغفر مما كان فيه تفريط، ثم يواصل نفع الناس على وجه أضبط. الرجاء هنا يحمله على إصلاح الأثر بدل الدفاع عن صورة مكتملة لم تتحقق.

ومثل ذلك من نظم مساعدة فوصلت إلى أهلها لكنه أحرج أحد المستفيدين بعرض حاله. يسع الشخص أن يفرح بوصول العون، ثم يتعلم أن ستر المحتاج حق له، وأن نجاح خطوة لا

يبرر تجاوزًا في خطوة أخرى. لا يحتاج إلى أن يصف نفسه كلها بالسوء كي يتوب من هذا الخطأ؛ يحتاج إلى فعل محدد يرفع ما أمكن من الأثر ويحفظ الناس بعده.

ما الذي تراجعه وما الذي تتركه

المراجعة النافعة تتصل بما يمكن معرفته وتصحيحه. إذا علمت أنك أخطأت في عدد واجب أو أخللت بشرط أو ضيعت حقًا، تعلمت الحكم وعملت به. وإذا كان الأمر شكًا يتكرر بلا سبب جديد، فلا تجعل كل تكرار له معلومة تستدعي إعادة البحث من البداية. تفاصيل العبادات والشكوك لها أحكامها التي تؤخذ من أهل العلم، وليست ساحة يضع فيها كل شخص قاعدة بحسب قلقه.

في الأعمال المشتركة يمكن أن تراجع وقت التسليم، ودقة المعلومات، وطريقة حفظ الأمانات، ووضوح التعليمات. هذه مراجعة لها شواهد. أما أن تجتمع بعد كل عمل لتوزع درجات الإخلاص على المشاركين، فذلك انتقال إلى ما لا تملكه. قد تلاحظ سلوكًا يحتاج إلى نصح، كالتفاخر أو إخفاء الخطأ، فتنصح في السلوك، ولا تدعي أنك أحطت بسريرة صاحبه.

وتحتاج المراجعة إلى نهاية عملية. إذا سجلت خطأ وصححته وتعلمت منه، فلا يبقى استحضاره المستمر شرطًا لصدق توبتك. ضع ما تعلمته في طريقة العمل التالية، ثم اترك للمستقبل حقه. بعض الناس يخشى أن يكون التوقف عن جلد نفسه تساهلًا، فيعيد الندم من غير عمل جديد. والندم الصادق باب إلى الرجوع، أما الصورة التي تشلك عن حق حاضر فتحتاج إلى تصحيح في الفهم وإلى عون يناسب حالك.

الثناء الذي يأتي بعد الطاعة

قد يشكرك الناس على خير فعلته، وقد يظهر أثره في حياة أحدهم، فتفرح. لا تجعل الفرح الطبيعي وحده تهمة تقضي بها على العمل كله، ولا تجعل المدح شهادة نهائية بقبوله. استقبل الشكر بأدب، واحمد الله على ما يسر، وتذكر من أعانك، ثم انظر هل بدأ طلب الثناء يغير اختيارك القادم. هذا موضع المراجعة العملي: هل ستترك خيرًا خفيًا لتبحث عن عمل أشد ظهورًا؟ هل ستبالغ في وصف الأثر لتبقى الصورة التي أحبها الناس؟

وحين تتحدث عن تجربة نافعة، بيّن حدودها. إن كنت تعلم أن عشرة أشخاص حضروا فلا تقل إن المجتمع تغير، وإن

بلغتك شهادة واحدة فلا تجعلها إجماعًا. الدقة في وصف الثمرة عبادة صدق وأمانة معرفة. لا يحتاج الخير إلى أرقام متخيلة ليكون خيرًا، وقد يكون أثر قليل ثابت أبرك من خبر كبير لا أصل له.

ولا يلزم أن تخفي كل عمل؛ الإعلان قد تكون له مصلحة من تعليم أو قدوة أو بيان أمانة. لكن راجع المقصد والطريقة والحقوق المتصلة به. من أعانته قصة شخص آخر ليس مالكًا لخصوصيته، ومن تبرع بشيء ليس مخولًا أن يتحدث عن المستفيد بما يؤذيه. رجاؤك لما عند الله يوسع قدرتك على خدمة لا تستوفي منها كل حظ نفس عاجل.

حين لا يظهر أثر ما فعلت

قد تنتهي من عمل صحيح ولا ترى أثرًا واضحًا. قرأ المتعلم ثم انصرف، أو قُدمت المساعدة ولم تسمع شكرًا، أو بذلت النصيحة ولم يتغير صاحبها في الوقت الذي توقعت. ليس لك أن تجزم من هذا أن العمل ضاع، ولا أن تجزم أنه أنجز كل ما أردت. فرّق بين رجاء الثواب وتقييم الوسيلة؛ الأول متعلق بوعد الله وصدق العبودية، والثاني يبحث فيما تعلمه من أثر وأسباب.

يمكن للمعلم أن يقول إن طريقته تحتاج إلى تحسين، مع رجائه أن يثيبه الله على ما قصد وبذل. ويمكن للمحسن أن يغير باب المساعدة إذا تبين أن بابًا آخر أنفع، من غير أن يتهم كل جهده السابق بأنه كان عبثًا. والقدرة على الجمع بين المعنيين تحمي العمل من الجمود: لا يحول حسن القصد دون التعلم، ولا يجعل ضعف الأثر المرئي بابًا لليأس من رحمة الله.

وإذا لم يكن تقييم الأثر متاحًا، قلت لا أعلم. هذه الكلمة أصدق من مدح واسع يصنعه الخيال، وأرحم من حكم قاس لا يقوم على بينة. ليس كل عمل في الحياة قابلًا للقياس القريب، لكن كل خبر تقوله عن عملك محتاج إلى صدق. تستطيع أن ترجوه وتدعو له، ثم تدع ما استأثر الله بعلمه له.

أن تحمل العمل إلى اليوم التالي

ثمرة المراجعة ليست ملفًا طويلًا يثبت أنك راقبت نفسك، بل فعل أنفع في المرة التالية. إذا تعلمت أن خطوة تربك الناس بسّطتها، وإذا عرفت أنك تؤخر حقًا قدمته، وإذا رأيت أن كثرة الوعود تضعف الوفاء قللتها. وقد يكون أحسن قرار بعد نجاح كبير أن تستريح بقدر يعينك على حقك القادم، وأن تترك لغيرك فرصة المشاركة.

ومن حسن الرجاء ألا تطلب من كل يوم أن يكرر ذروة اليوم السابق. تتسع الحياة لأعمال كبيرة وأعمال مألوفة، ولأوقات قدرة وأوقات ضعف. اجعل الفرائض والحقوق أصولًا ثابتة، ثم خذ من النوافل والخدمة ما تستطيع. وإذا فتح الله لك خيرًا جديدًا دخلته على بصيرة، وإذا غلق بابًا لم تسقط من حسابك الأبواب التي بقيت.

يخرج العبد من العمل وهو يقول بلسان حاله: ما تيسر فمن فضل الله، وما أخطأت فيه أتعلمه وأصلحه، وما لا أعلمه من القبول أرجوه من ربي. هذه صحبة للعمل تحفظه من العجب، وتحفظ صاحبه من الانقطاع، وتجعله أقدر على أن يبدأ غدًا بقلب متواضع وعزم صادق.

الفصل الرابع والعشرون

كيف تقرأ خبرًا عن الفرج

تصل إلى الناس أخبار كثيرة عن دعاء أعقبه شفاء، أو صدقة أعقبها رزق، أو رجوع إلى الله أعقبه تحول في الحياة. بعض هذه الأخبار ثابت في الوحي، وبعضها حكاية بشرية تصدق أو تخطئ، وبعضها رسالة مجهولة أضيفت إليها تفاصيل مع كثرة تداولها. والانتفاع بها يحتاج إلى أدب في القراءة؛ لأن الخلط بين أنواع الخبر قد يصنع وعدًا لم يقله الله، أو يحمل صاحب البلاء ذنبًا لم يثبت عليه.

قرأنا في هذا المجلد خبر أصحاب الغار، وقصة كعب، وخبر الحديبية. لم نحتج إلى اختراع مشهد ليكون المعنى مؤثرًا، بل كان حفظ الخبر هو أول الوفاء به. ويكتمل هذا الوفاء بأن نفهم وجه الانتفاع، فلا نجعل كل واقعة قانونًا آليًا يعيد النتائج نفسها لكل إنسان في كل زمن.

المصدر قبل مقدار التأثر

قد تبكيك حكاية، لكن التأثر لا يثبت صدقها. وقد يكون خبر صحيح قليل الزخرف أهدى للقلب من قصة طويلة لا تعرف

من رواها. اسأل عن المصدر قبل أن تنسب قولًا إلى النبي ﷺ أو واقعة إلى أحد من أصحابه. إن وجدت رقمًا أو صورة صفحة، فتحقق أن النص موجود وأن المنقول يوافقه، وأن الكتاب الذي نقلت منه ليس مجرد ناقل لحكاية بلا إسناد.

ولا يطلب من كل قارئ أن يكون محدثًا. يستطيع أن يرجع إلى مصادر موثوقة وإلى أهل العلم، وأن يمسك عما لم يتبين له، وأن يفرق في عبارته بين حديث ثابت وقصة معاصرة يرويها صاحبها. إذا لم تستطع التحقق، فليس نشر الخبر واجبًا عليك. قد يكون ترك رسالة مؤثرة بلا إعادة إرسال أصدق خدمة للدين من نشرها مع عبارة عامة لا تعالج نسبتها الخاطئة.

ومما يستحق الانتباه أن بعض القصص تتغير عناوينها وأسماء أصحابها ويبقى متنها واحدًا. لا تستنتج من كثرة النسخ أن الواقعة تكررت؛ ربما كان المصدر خبرًا واحدًا نسخ مرات. والتثبت هنا ليس جفاء مع الفرج، بل حماية للثقة. من اعتاد المبالغة في القصص قد يجعل المستمع يشك في الصحيح حين ينكشف له اختلاق بعض ما سمع.

ماذا يثبت الخبر وحده

إذا أخبر شخص أنه دعا ثم حصل له أمر طيب، فهذه شهادة عن تسلسل ما عاشه بحسب صدقه ودقة ذاكرته. له أن يحمد الله ويحدث بنعمته على وجه حسن، لكن الحكاية وحدها لا تثبت فضلًا مخصوصًا لصيغة أو عدد، ولا تحدد أجلًا تستجاب فيه دعوة كل من يقلده. إثبات العبادة وفضلها يحتاج إلى دليله، وما ثبت فضلُه لا يضاف إليه شرط لم يثبت.

وقد يقع بعد العمل خير دنيوي من وجوه متعددة، ولا يلزم الإنسان أن يعرف تفصيل السببية الغيبية حتى يشكر. يشكر الله على التوفيق للعمل وعلى النعمة اللاحقة، ويحفظ الفرق بين الحمد وبين صناعة قانون. من تصدق ثم ربح لا يبيع الناس وعدًا بأن كل صدقة ستعيد إليهم مبلغًا معينًا خلال أيام. ومن دعا ثم شفي لا يحمل من بقي مريضًا تهمة أن دعاءه كان أقل صدقًا.

في الأخبار النبوية الثابتة نؤمن بما أخبر به النبي ﷺ، ونفهمه في سياقه وبجمع النصوص. أما المدى الذي يعمم منه الحكم فيتعلم من أهل العلم. لا يكفي تشابه مشهدين في عين القارئ ليحكم أن جميع تفاصيل أحدهما لازمة للآخر. وقد بينت

الفصول السابقة أن رجاء الفرج يصحب أداء الحق، وأن صلاح العمل لا يجعل الإنسان مطلعًا على توقيت القدر.

ما الذي غاب من الصورة

القصص المختصرة تعرض غالبًا لحظة التحول، وتترك سنوات العمل والانتظار، وتغفل ما لم ينجح من المحاولات. قد يظن القارئ أن صاحبها دعا مرة فاستقامت حياته كلها، مع أن الراوي اختار مشهدًا واحدًا من حياة فيها ابتلاء مستمر. إذا كانت القصة بشرية، فاقرأها على أنها بعض ما عُرض لك، لا سيرة تحيط بكل ما عاشه صاحبها.

ومثل ذلك أخبار النجاح المهني أو المالي التي تخلط بين العبرة والإعلان. قد تحذف التكاليف والخسائر ودعم الأسرة، ثم تقول للمستمع إن العامل الوحيد كان قوة التفاؤل. تستطيع تقدير صدق السعي في الحكاية دون أن تتخذها أساسًا لقرار يمس مالك أو حقوق غيرك. ابحث عن المعلومات التي يحتاج إليها القرار نفسه، واستعن بمن يعرف مجاله؛ فالموعظة لا تغني عن بيان الواقع.

وليس الغرض إطفاء الأمل في قلوب الناس، بل إعطاؤه أصلًا يحتمل الحياة كما هي. الأمل الذي لا يعيش إلا في قصة

منتقاة يضعف عند أول تجربة مختلفة. أما الرجاء الذي يعرف وعد الله، ويعرف حدود الحكايات، فيستطيع أن ينتفع ببشارة غيره من غير أن يطالب ربه أن يكررها له بالصورة نفسها.

كيف تحكي ما مر بك

إذا أردت أن تحكي نعمة، فابدأ بما تعلم. قل ما وقع لك، وماذا بذلت من أسباب، وما الذي ترجوه من معنى، ولا تنسب إلى الله خبرًا خاصًا عن سبب كل تفصيل. قد تقول إنك تعلمت من التجربة الصبر أو شكر الناس أو حسن السؤال؛ هذا وصف لتعلمك. أما أن تقول إن الله أراد بك هذه الواقعة لأجل معنى واحد بعينه، فذلك تعيين يحتاج إلى علم لا تملكه بمجرد شعورك.

واحفظ من شاركك القصة. ربما كان الفرج متصلًا بخطأ شخص ستره الله، أو بمرض لا يحب صاحبه ذكره، أو بمساعدة قدمها من اختار الخفاء. لا تصبح أسرارهم مباحة لأنك تريد موعظة مؤثرة. تستطيع حذف التعريف بهم أو الاقتصار على المعنى، وقد تكون أفضل حكاية هي التي تبقى في قلبك ويظهر أثرها في عملك.

وإذا أخطأت في نقل خبر ثم تبين لك، فصحح حيث نشرته بقدر ما تستطيع. لا تجعل الخجل من التصحيح سببًا لبقاء النسبة الخاطئة. يكفي بيان واضح أن النص لم يثبت كما نقلت، أو أن التفصيل كان غير دقيق، ثم وضع الصحيح إن عرفته. ويكون هذا التصحيح نفسه درسًا في أن تعظيم الدين يقتضي أمانة الكلام عنه.

من الخبر إلى العبادة

بعد أن تعرف خبرًا صحيحًا، اسأل عما يحملك عليه من عمل معلوم. خبر أصحاب الغار يذكرك بالإخلاص والعفة والبر وأداء الأمانة، وخبر كعب يذكرك بالصدق ولو ثقل، وخبر الحديبية يصحح علاقتك بالوعد والتوقيت والاتباع. هذه وجوه قريبة من النصوص، لا تحتاج إلى استخراج وصفة سرية للنتائج.

ثم دع للقلب حظه من التأثر من غير تكلف. قد تفهم المعنى اليوم ولا تبكي، ثم يحضرك في موقف بعد شهر فيعينك على صدق أو صبر. ليس مقدار الانفعال عند القراءة هو المقياس الوحيد للنفع. الأثر الأرسخ أن يتغير اختيار صغير في موضع كان الهوى يقودك فيه، وأن تصير أسرع رجوعًا إلى الحق حين تبينه.

بهذا تصل خاتمة المجلد إلى بدايته: حسن الظن بالله معرفة تصدق، ورجاء يعبد، وعمل يتبع، وأمانة تحفظ حق الخالق وحقوق الخلق. والعبد لا يملك الغيب، لكنه يملك أن يسأل ربه ويأخذ بما علم من الهدى. وكلما استقام هذا الجمع، قل احتياجه إلى المبالغة، واتسع رجاؤه لما عند الله.

الفصل الخامس والعشرون

قراءة تطبيقية لقرار يصحبه الرجاء

هذه حالة افتراضية وضعت للشرح، لا خبر عن شخص بعينه ولا قصة تنسب إلى أحد من السلف. صاحبها يعمل في خدمة تعليمية صغيرة، وعرض عليه أن يوسع عمله مع شريك. في العرض منفعة ظاهرة وفرصة يحتاج إليها، لكن بعض المعلومات غير واضح، وبعض الوعود يتجاوز ما يستطيع تقديمه. يريد أن يحسن الظن بالله، ويخشى في الوقت نفسه أن يضيع فرصة نافعة بكثرة التردد. نتابع أسئلته لنرى كيف تتصل المعاني السابقة بقرار له تفاصيل وحقوق.

ليست الحالة فتوى في عقد معين ولا توصية تجارية؛ فالعقود تحتاج إلى معرفة واقعها وإلى أهل اختصاصها. المقصود بيان عمل القلب مع أمانة النظر: كيف يسأل، وكيف يميز الرغبة من الدليل، وكيف يعمل إذا ظهر له خطأ، وكيف يستقبل النتيجة بعد ذلك. وهذه أمور تنتفع بها في قرارات كثيرة، مع اختلاف أحكامها ووسائلها.

ما الذي عرفه فعلًا

أول ما فعله صاحبنا أنه فصل ما شاهده عما سمعه. يعرف عدد العاملين الموجودين، ويعرف المهارة التي يملكها هو، لكنه لا يعرف على وجه الدقة كلفة التوسع ولا قدرة الشريك على الوفاء ببعض ما وعد. كان قبل ذلك يتحدث عن المشروع كأنه مكتمل؛ وحين كتب المعلومات تبين له أن جزءًا من طمأنينته جاء من صورة مستقبلية يحبها، لا من واقع تحقق منه.

لم يلزم من هذا أن يرفض الفكرة. طلب المعلومات الناقصة، وسأل عمن يستطيع فحصها، وميز ما يمكن التحقق منه عما يبقى تقديرًا. إذا قال له الشريك إن الناس سيقبلون بالتأكيد، سأل عن مستند هذا التقدير، ولم يجعل حسن علاقته به بديلًا عن البيان. تستطيع أن تحب إنسانًا وأن تطلب توثيق حقك معه؛ الوضوح يحفظ العلاقة من نزاع قد يصنعه الغموض.

وفي هذه الخطوة ظهر له معنى من حسن الظن بالله: لم يعد يحتاج إلى أن يغلق عينيه كي يثبت ثقته. يعلم أن الله أمره بالصدق وأداء الأمانة، وأن جهله بالتفاصيل لا يصبح فضيلة بتسميته تفويضًا. يستخير ربه فيما شرع له أن يختار،

ويستشير أهل الخبرة، ويقبل أن يكون الجواب النافع معلومات تغير حماسته الأولى.

الوعود التي سيحملها غيره

وجد أن الإعلان المقترح يعد المتعلمين بنتيجة لا يمكن ضمانها. كان الشريك يرى أن العبارة شائعة، وأن الجميع يفهم أنها للمبالغة، لكن صاحبنا رأى أن بعض الناس سيبذلون مالًا ووقتًا اعتمادًا عليها. انتقل السؤال من هل ستجذب العبارة جمهورًا إلى هل تصف ما نقدم بصدق. هذا انتقال مهم؛ لأن الحقوق التي ستنشأ لا تتغير لمجرد أن المبالغة مألوفة في محيط العمل.

اقترح وصفًا أدق يبين محتوى الخدمة وما يحتاجه المتعلم من جهد، وترك ما لا يملكون ضمانه. قد يصبح الإعلان أقل إثارة، لكنه أقرب إلى ما يستطيعون الوفاء به. لم يقل إن الصدق سيجلب لهم حتمًا مالًا أكثر؛ هذا وعد آخر لا يملكه. قال إن عليه أن يصدق، وإنه يرجو بركة الله فيما يسعه من عمل مشروع، ثم ينظر في وسائل تحسين الخدمة وتوضيح قيمتها.

وإذا عجز المشروع عن الاستمرار إلا بوعد مضلل، فهذه معلومة عن المشروع تحتاج إلى مراجعة، وليست حجة على إباحة التضليل. قد يغيرون الحجم أو الوقت أو طريقة تقديم العمل، وقد يتبين أن الفرصة على صورتها الأولى لا تصلح لهم. الرجاء لا يوجب على الإنسان إنقاذ كل فكرة أحبها مهما كلفت من حقوق الناس.

من سيدفع كلفة الحماسة

ثم نظر صاحبنا إلى وقته. كان مستعدًا لأن يعد بساعات إضافية كثيرة، لكنه مرتبط بعمل قائم وحقوق في بيته. أدرك أن بعض الخطة يفترض ضمنًا أن يتحمل أهله غيابه وأن يكمل زميله مهامه القديمة. لم يكن قد تحدث معهما عن هذا الأثر، ومع ذلك كان يصف القرار بأنه قرار شخصي محض. هنا احتاج إلى أن يسمع من سيتأثر، وأن يفرق بين ما يملكه من وقته وما التزم به لغيره.

جلس معهم وشرح ما يعرف وما لا يعرف. لم يطلب موافقة عاطفية على عنوان جميل، بل بين التغيير المتوقع والمدة التي يقترحها وحدود قدرته. ظهر من الحوار أن ترتيبًا أصغر ممكن، وأن بعض ما خطط له ينبغي تأجيله. لم يعد التعديل

في عينه ضعفًا؛ صار وسيلة لحفظ ما يريد من الخير دون أن يبني مرحلة جديدة على إخلاف مرحلة سابقة.

ومن حسن العمل ألا تجعل المتضرر مسؤولًا عن إحباطك إذا وصف لك أثر قرارك عليه. قد يكون في اعتراضه خطأ يناقش، وقد يكون فيه حق غاب عنك. استمع إلى الحجة، وميز المسؤوليات، ثم اطلب حلًا معلومًا. الخطاب الديني لا يستخدم ليجعل كل من يطلب حقه عائقًا في طريق مشروعك النافع.

قرار لا يملك ضمانًا كاملًا

بعد جمع المعلومات والاستشارة بقيت أمور لا يستطيع صاحبنا معرفتها مقدمًا. هل يقبل عدد كاف من الناس؟ هل يظل الوقت مناسبًا؟ هل تظهر صعوبة لم يحسبها؟ أدرك أن قدرًا من عدم اليقين ملازم لكثير من اختيارات الحياة. لا ينتظر علم الغيب حتى يتحرك، لكنه لا يخفي الاحتمال عن نفسه وعن من يشترك معه في الحق.

اختار بدء نطاق يستطيع تحمله، وحدد ما سيعده علامة تستدعي المراجعة، وترك لنفسه فرصة التعلم. كان هذا ترتيبًا بشريًا مباحًا بحسب فرض الحالة، لا سنة مخصوصة ولا

طريقة تضمن النجاح. ولو اختار التوقف بعد نظر معتبر لم يلزم أن يكون أقل توكلًا؛ الذي نراجعه هو صدق النظر ومشروعية الفعل وأداء الحق، لا مقدار الجرأة التي يعجب بها الناس.

ثم دعا الله أن ييسر الخير وأن يعينه على الوفاء. لم يطلب من نفسه أن يشعر بيقين نفسي كامل تجاه النتيجة قبل أن يبدأ. يكفيه أن يمضي فيما بان له بعد بذل ما يستطيع، وأن يبقى مستعدًا لتصحيح ما يظهر من خطأ. وهكذا أخذت الثقة موضعها الصحيح: اعتماد على الله مع عمل، لا ادعاء أن التقدير البشري معصوم.

حين ظهر الخطأ بعد البداية

في الشهر الأول وقع تأخر في جزء من الخدمة. كان من السهل أن يحمل المتعلمين المسؤولية أو أن يطلق وعدًا جديدًا حتى يهدأ الاعتراض، لكنه راجع ما التزم به. بين موضع التأخر، واعتذر عن تقصيره فيما كان منه، وبحث مع أصحاب الحق في إصلاح يناسب الاتفاق وحكمه. وإذا احتاج الأمر إلى بيان قانوني أو فقهي رجع إلى أهله، ولم يجعل هذه الحالة العامة جوابًا عن تفاصيله.

لم يكن الاعتذار ممتعًا، لكنه منع الخطأ من أن يتسع بالخداع. كان يخشى أن يفقد احترام الناس إذا اعترف، ثم تبين له أن الحفاظ على صورة خالية من النقص ليس هو الحق الذي كلف به. ربما قبل بعضهم اعتذاره وربما لم يقبله آخرون، ولكل حقه فيما يملكه. استمر في الإصلاح دون أن يشترط شكر الجميع حتى يؤدي ما عليه.

وهنا تميز الندم النافع من الدوران حول الذات. لم يقض وقته في تكرار أنه فاشل، بل عرف سببًا يمكن تغييره: وعد بمدة لم يملك أسبابها. عدل طريقة تحديد المواعيد، وأدخل وقتًا للمراجعة، وقلل ما يقبله في وقت واحد. لا يضمن هذا ألا يخطئ ثانية، لكنه يحول المعرفة الجديدة إلى أثر في العمل التالي.

إن نجح وإن تعثر

لو اتسع المشروع بعد ذلك، لم يكن من الصدق أن يحكي صاحبه أن مجرد عبارة قالها صنعت النجاح. كان هناك تعلم وتصحيح ومساعدة من آخرين وظروف لا يملكها، وكل ذلك من فضل الله وتقديره. يشكر ربه ويشكر من أحسن إليه،

ويصف تجربته بحدودها. لا يقدمها وصفة يلوم بها كل من لم ينجح، ولا يجعل غناه برهانًا على أنه أرضى لله من غيره.

ولو انتهى المشروع إلى خسارة رغم الاجتهاد، بقي السؤال عن الحقوق وما يمكن إصلاحه وما يتعلمه للمستقبل. يحزن بقدر ما يجد، ويطلب عونًا مناسبًا، ولا يحمل وعد الله نتيجة لم يعده بها. النجاح الدنيوي مطلوب في باب العمل الذي اختاره، لكنه ليس الطريق الوحيد إلى أن يكون ما بذله من صدق وأداء حق نافعًا له عند ربه.

وفي الحالين لا ينسى الحياة التي حول المشروع. له فرائض وعلاقات وأبواب خدمة لا تختصرها نتيجة واحدة. قد يبدأ عملًا آخر، وقد يعود إلى ترتيب سابق، وقد يحتاج إلى راحة يستعيد بها قدرته. من الخطأ أن يعطي قرارًا واحدًا سلطة الحكم النهائي على نفسه وعلى كل ما ينتظره من خير.

المعنى الذي ينتقل معك

إذا خرجت من الحالة باسم مشروع بدل اسم مشروع، فلن تكون قد أخذت أهم ما فيها. المقصود أن ترى الأسئلة التي تصاحب الرجاء: ما الذي أعلمه؟ ما الذي لا أعلمه؟ ما الحق الذي سيترتب؟ من يتأثر؟ ما الذي يحتاج إلى اختصاص؟ ما

الخطأ الذي ينبغي أن أصلحه؟ وما الخبر عن الله الذي أبني عليه قلبي؟ تختلف الأجوبة باختلاف الأحوال، لكن أمانة السؤال تبقى نافعة.

وقد تكون حالتك أقرب إلى قرار تعلم أو سفر أو رعاية قريب، لا إلى عمل تجاري. لا تنقل الحلول كما هي؛ انقل أدب النظر، ثم تعلم حكم واقعك. حسن الظن بالله لا يقدم لك جوابًا واحدًا لكل تفصيل، بل يعينك على قبول ما بان من الحق، وعلى العمل فيه من غير يأس، وعلى ترك ما لا تملكه لله.

هذا هو الجسر إلى المجلد الثالث حيث تتقلب أحوال الحياة، ثم إلى الرابع حيث تتدرب على وصف واقعك وصياغة خطوة ممكنة. ويبقى المقصود في الجميع واحدًا: قلب يعرف ربه، ولسان يصدق، وعمل يحفظ حقه، ورجاء يتسع للعودة كلما تبين له ما يصلحه.

خاتمة

رجاء تعرف ما يستند إليه

قد تبقى في حياتك أسئلة لم تجد جوابها، وحاجات لم تر لها قضاء، وأعمال تحتاج أن تبدأها من جديد. ومع ذلك تستطيع أن تحسن الظن بالله؛ تعرف خبر فضله، وتطلب هداه، وتستعين به، وتؤدي ما عليك بحسب قدرتك. لا يتوقف هذا كله على أن ترى المستقبل قبل أن تمشي إليه.

إذا تغيرت الظروف، فراجع الوسائل التي تحتاج إلى تغيير، واحفظ الأصل الذي يصح أن تثق به. ربك هو الذي عرّفك برحمته وعلمه وقدرته وعدله، وهو الذي أمرك بالدعاء والعمل. عد إلى ذلك كلما اختلط عليك الوعد بالأمنية، أو العمل بالتعلق بالنتيجة، واطلب منه قلبًا يصدق خبره ويحسن عبادته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح.

مسلم بن الحجاج. الصحيح.

النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

ابن حجر، أحمد بن علي. فتح الباري شرح صحيح البخاري.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

القرطبي، أحمد بن عمر. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم.